مراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 20، مايو 2020، السنة الرابعة

الشارقة للتراث يحتفل «رقمياً» باليوم العالمي للتراث

كورونا .. جائحة أشعلت فتيل الإبداع

المعزل والطهف حجرنا الماضي

أمراض وأوبئة حاصرت الخليج

ملف الشهر

الأمراض والأوبئة عبر التاريخ

مراود العدد 20، مايو 2020، السنة الرابعة

MARAWED Issue, 20 (MAY 2020), The Fourth Year

MARAWED

Magazine Concerned With The Cultural Heritage

Issue, 20 (MAY 2020) The Fourth Year

صدر حديثاً

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

معهد الشارقة للتراث
Sharjah Institute for Heritage

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

ويشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: marawed@sih.gov.ae

للتواصل مع إدارة التحرير:

065014898 - 0567927270

m.bounama@sih.gov.ae

مراود

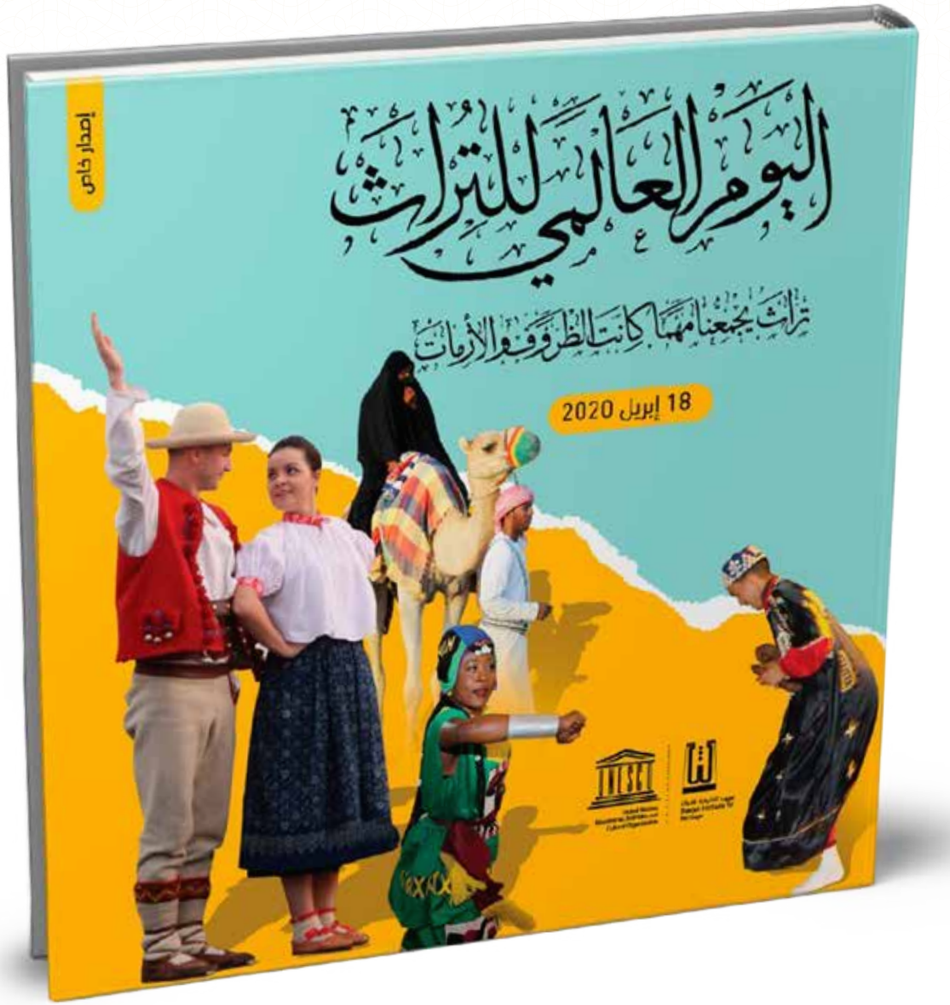

الأمراض والأوبئة عبر التاريخ

د. عبدالعزيز المسلّم
رئيس معهد الشارقة للتراث
رئيس التحرير
az.almusallam@gmail.com

اجتاحت العالم في حقب زمنية مختلفة العديد من الأمراض والأوبئة الخطرة، التي فتكت بكثير من البشر، بفعل قلّة الخدمات الصحية المساعدة على مواجهة تلك الأمراض والأوضاع المتباينة، التي كان يعيشها الإنسان في تلك الحقب، وقد دهم الكثير من تلك الأمراض، كالطاعون والجدري وغيرهما، منطقة الخليج العربي، بما فيها دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد اتخذ الأهالي العديد من السبل لمواجهة الأمراض، وتفادي انتشارها، وتختزن الذاكرة الشعبية الإماراتية أسماء لها دلالات، منها: «المعزل» و«الطهف»، فالمعزل في التراث الإماراتي هو الحجر الصحي، ويلفظ «مْعَزَلْ» بتسكين أوله وآخره، وفتح الحرفين الأوسطين. أما الطهف فهو الريح العاتية، وقد شهدت الإمارات صنوفاً منها، وتعاون الأهالي على مجابهة أهوالها.

واتساقاً مع الوضع الراهن، وانتشار جائحة كورونا (كوفيد 19)، فقد ارتأينا إفراد ملف خاص، يسلّط الضوء على الأمراض والأوبئة التي عرفها العالم، وآثارها في الخليج العربي، والحجر الصحي في الإمارات قديماً، مع التعريج على دور جائحة كورونا في إشعال فتيل الإبداع لدى الكتّاب في عزلتهم.

كما حوى العدد استعراضاً ضافياً لاحتفاء معهد الشارقة للتراث باليوم العالمي للتراث (افتراضياً)، الذي يصادف الـ18 من إبريل كل عام، والذي تم اقتراحه من المجلس الدولي للمعالم والمواقع (ICOMOS) 1982م، ووافقت عليه الجمعية العامة لليونسكو في عام 1983، وذلك بهدف تعزيز الوعي بأهمية التراث الثقافي للبشرية، ومضاعفة جهودها اللازمة لحماية التراث والمحافظة عليه، والعمل على تشكيل إجماع عالمي على هذه الأهمية، وقد اعتاد معهد الشارقة للتراث الاحتفاء بهذه المناسبة التراثية العالمية، من خلال إفراد فعاليات خاصة، ضمن أيام الشارقة التراثية، تجمع تراث العالم بمختلف عناصره وألوانه، وبمشاركة العديد من الفرق الفنية الشعبية، التي تضم ثقافات الشعوب وحضارات الأمم، وتستعرض تراثها الغني، من خلال عروض متنوّعة، تشمل الرقصات والفنون التراثية في قلب الشارقة.

واستعرضت الأبواب الثابتة في المجلة موضوعات ومتفرقات تراثية، مزجت بين الشعر والفنون الشعبية، واحتفت بأشعار الشاعرة عفراء بنت سيف المزروعي، وتطرقت إلى التحولات التي عرفها «النوبان» الشعبي في الإمارات، وفنون الشحوح، والقهوة العربية، وأدب الرحلة، ومعالم تاريخية وتراثية، وعناصر من تراثنا الثقافي الغني.

لذلك، يقدّم هذا العدد مادة دسمة وغنية للقارئ العربي، ستسهم في إثراء معارفه التراثية والثقافية، وتطوير مخزونه الثقافي، من خلال المقاربات القيّمة التي كتبها نخبة من الكتّاب الإماراتيين والعرب.

محتويات العدد

الافتتاحية 5

الشارقة للتراث يحتفل «رقمياً» باليوم العالمي للتراث 10

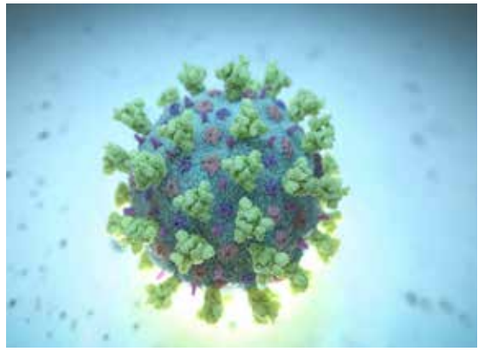

ملف العدد

الأمراض والأوبئة عبر التاريخ 18

عمار السنجري.. عاشق الصحراء 106

الشاعرة عفراء بنت سيف المزروعي عتيج القبيسي 66

تحوّلات فن «النوبان» الشعبيّ في الإمارات علي العبدان 68

المَعْرَج في البيت اليمني.. فكر إبداعي وموروث حضاري 82

القهوة والتواصل بين الواقع والخيال 76

فنون الشحوح علي العشر 70

النخلة... شجرة الحياة 72

الرحلة العياشية ماء الموائد 90

المُثَلَّثَة 89

المطر.. الحاضر القوي في
الأدب الشعبي الإماراتي «الشعر النبطي»
96

«تِشْلِيت».. عروس المطر
102

حصن الذيد
104

سوالف الهامور
عبدالله خلفان الهامور
108

ميزان الكتب
110

أوغاريت
لغة الإنسانية الأولى..وحضارتها الأبدية
114

شرفة
حديث العزلة
116

Diseases and epidemics
over the history
118

مراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
رئيس جمعية المكتبات والمعلومات

مدير التحرير
د. منّي بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

أسرة التحرير
أ. عـلي العبـدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

مـعـهـد الـشـارقـة للـتـراث
SHARJAH INSTITUTE FOR HERITAGE

800TURATH
هاتف: +971 6 5092666
انستغرام: marawed_sih
الموقع الالكتروني: www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

الشارقة للتراث يحتفل «رقمياً» باليوم العالمي للتراث

«التراث الثقافي يجمعنا» هو شعارنا

الدكتور عبدالعزيز المسلّم

الفنون بأنواعها، الأدائية والبصرية والنغمية، خصوصاً التقليدية منها، المسماة الفنون الشعبية، من غناء ورقص وحِرف يدوية، وتشكيل المادة، كالخوص أو خيوط القطن أو الصوف أو الحرير، كلها تجمع الناس، وتنشر الودّ بينهم، فالتراث الثقافي، وخصوصاً المعنوي منه، ينشر أطيافاً من الفرح والمودة بين الناس، دون قيود أو حواجز؛ لذلك سعت منظمة اليونسكو، وعدد من الدول الأعضاء، التي أدركت مبكراً أهمية التراث الثقافي، ودوره الإيجابي في تنمية المجتمع، وإعلاء ذائقته وإنسانيته.

وقد أعلنت اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) الثامن عشر من إبريل، يوماً للتراث العالمي، وعلى إثر ذلك، أعلنت الشارقة تنظيم أيام الشارقة التراثية مهرجاناً سنوياً للتراث منذ عام 2003، ليكون مهرجاناً تراثياً عالمياً، يجمع الناس، ويعرض تراث العالم.

ورغم ما نمرّ به من أحداث فريدة في هذه الجائحة العالمية، وباء كورونا (كوفيد 19)، إلّا أننا أبينا ألّا نحتفل بيوم التراث العالمي، ولو بشكل افتراضي، وكلنا أمل بأن ينهض العالم من هذا المصاب، وقد تعلم درساً مهماً، أن الوحدة العالمية تتحقق بالاختلاف الجميل، بتنوّع تراث العالم.

إلى الجميع: كلّ عام وأنتم بخير، داعين الله أن نلتقي على الخير والمحبّة في مناسبة تراثية أصيلة، مثل أيام الشارقة التراثية، قريباً جداً بإذن الله.

سيف البدواوي، فهد المعمري، طلال الرميضي، منّي بونعامه خلال الندوة الافتراضية

إيماناً منه بأهمية دور التراث المحوري في التأثير في حياة الشعوب، وتماشياً مع الظروف الراهنة التي أحدثتها جائحة كورونا، نظّم معهد الشارقة للتراث، الشهر الماضي، برنامج يوم التراث العالمي، الذي يأتي احتفالاً بيوم التراث العالمي، الذي يصادف الثامن عشر من إبريل من كل عام.

وتميزت احتفالية هذا العام بفعاليات استثنائية، حيث تم تقديم برنامج تراثي افتراضي للمرة الأولى، باستخدام التقنيات الرقمية، والذي اشتمل على حزمة من الأنشطة والفعاليات المتنوّعة، التي أبرزت جماليات التراث العالمي، وروائعه الخالدة، حيث كان بإمكان الجمهور متابعة هذه الاحتفالية من خلال الموقع الإلكتروني للمعهد على الرابط: (www.sih.gov.ae).

برنامج الاحتفالية

وتضمن برنامج الاحتفالية كلمة سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، وندوة فكرية شارك فيها باحثون من داخل الدولة وخارجها، كما تم استعراض الحرف التراثية والفنون الشعبية، ومتاحف شخصية،

ومقابلات مع أصدقاء التراث، بالإضافة إلى إصدار خاص بهذه المناسبة، واستعراض بعض أفلام الفيديو حول مسيرة التراث العالمي لعام 2019، والسنوات التي سبقت، وأفلام حول ورش عمل حرفة الخياطة وحرفة (التلي) وصناعة الدمى وصناعة الدخون.

إصدار خاص

تم إصدار كتيب خاص، تحت عنوان «اليوم العالمي للتراث.. تراث يجمعنا مهما كانت الظروف والأزمات»، حيث أشار الإصدار إلى أن معهد الشارقة للتراث اعتاد الاحتفاء بهذه المناسبة التراثية العالمية، من خلال إفراد فعاليات خاصة، ضمن أيام الشارقة التراثية، تجمع تراث العالم بمختلف عناصره وألوانه، وبمشاركة العديد من الفرق الفنية الشعبية

التي تضم ثقافات الشعوب وحضارات الأمم، وتستعرض تراثها الغني، ويتخلل الفعاليات المصاحبة استعراض أزياء الشعوب والفنون الشعبية، والعادات والتقاليد القديمة، وتقدم الفرق الفنية المشاركة في فعاليات «أيام الشارقة التراثية»، كل عام، عروضاً متنوعة من الرقصات والفنون التراثية في قلب الشارقة، حيث يطرب جمهور الأيام وزوّارها وعشاق التراث، على إيقاع فن العيالة والليوا والهبان والنوبان والطنبورة والسومة والرزيف والدان والحربية والأنديمة والرواح والندبة، بالإضافة إلى الفنون الشعبية والرقصات التراثية من مالطا وصربيا وسلوفاكيا وفرنسا وعُمان والسودان والعراق واليمن ومصر وإسبانيا وغيرها من الدول المشاركة.

وتجوب هذه الفرق الشعبية المنطقة التراثية على إيقاع الموسيقى، الذي يمزج بين ثقافات الشعوب وتراثها المتنوع، كما يعدّ اليوم العالمي للتراث مناسبة عالمية تواكبها «الأيام» كل عام بباقة من البرامج التراثية الثرية والبرامج العالمية، حاوية محاضرات ولقاءات وفرقاً خاصة، والكثير من الأكاديميين وباحثي التراث وهيئاته الدولية.

شهادات

كما شملت الاحتفالية شهادات عن معهد الشارقة للتراث لكلٍّ من فيليب بيو سانت، رئيس المجلس الدولي لمنظمة المهرجانات والفنون الشعبية (cioff)، وجيرنو بيلتونين، رئيس قسم الجمعية الفنلندية العربية، والدكتورة الباحثة نجيمة طاي، رئيسة مغرب للحكايات، وجان حجازي، خبير اليونسكو في التراث.

متاحف شخصية

كما تم بث عروض للمتاحف الشخصية، مثل متحف عبدالله الظهوري، الخاص بالأواني القديمة، التي كان يستخدمها الآباء والأجداد، والتي كانت متعددة الأغراض، ومصنوعة من المعدن أو الفخار؛ لأجل التخزين وحفظ الطعام، أما السوائل والمشروبات مثل الماء والزيت والدبس وغيرها، فكانت تخصص لها قوارير فخارية مثل «الخرس»، وهي قارورة كبيرة الحجم، و«قربة» الماء، و«الطاسة» و«القدور».

أما متحف فاطمة الكتبي، فهو خاص بالعملات النقدية القديمة التي تحتفظ بها منذ عام 1973، مثل (10 دراهم – 5 فلوس – 10 فلوس).

وكذلك بث فيديو لمتحف راشد علي النهم من كلباء، الذي يحتوي على 200 قطعة من الإلكترونيات القديمة، وأدوات الزينة والحلاقة والساعات والألعاب والشنط المدرسية والأقلام.

أما متحف جاسم حميد آل علي، الذي كان يحتوي على

مجموعة من الكتب الخاصة بالمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، كما يحتوي المتحف على مجموعة من الكاميرات السينمائية والشاشات التلفزيونية، التي ترجع إلى زمن العشرينيات والثلاثينيات، ويوجد عدد كبير من الساعات الجيبية، ومطحنة القهوة، ومجموعة من الجرار القديمة التي كُتبت بالخط الكوفي.

الفنون الشعبية

كما تضمن البرنامج بثاً لعروض الفنون الشعبية المختلفة، مثل (فن العيالة – فن الليوة - فن الهبان)، ولوحات استعراضية من أسابيع التراث العالمي في الشارقة لبعض الدول، مثل: الشيشان وبلغاريا وكازاخستان وسان مارنيو والسنغال وإندونيسيا.

ورش عمل

صناعة الدمى

تم بث فيديو لصناعة الدمية التراثية المعروفة بـ«لحية» والتي تتكوّن من بقايا الأقمشة والقطن والخيوط، ومن

ثم تطبيق ما تم التدرب عليه بصورة عملية، لصنع الدمية والكندورة والثوب والبرقع، ومن ثم الحصول في النهاية على عرائس من صنع الأيدي.

صناعة الدخون:

أوضحت الورشة أن صناعة الدخون تعدّ صناعة تقليدية في المنطقة، متوارثة منذ أزمان بعيدة، ولاتزال النساء يزاولن هذه المهنة، ويحافظن على هذا التقليد التراثي، حيث يستخدم أهل الإمارات البخور كطقوس يومية تعطر البيوت والثياب، فتجد روائح العود والعنبر تفوح من كل البيوت، لتبهج الروح، ويكثر استخدامه في المناسبات الدينية والعامة، مثل الأعياد والأعراس والمناسبات الاجتماعية المختلفة، ولا يمكن أن يكتمل جهاز العروس إلا بأطايب البخور والدخون والعطور العربية، التي تحوي زيوت الورد والريحان والعود المعتق، وأنواع العنبر التي تجلب من جميع دول العالم؛ لتصنع منها أجمل الروائح الزكية.

ومن أشهر الخلطات المستخدمة قديماً بين نساء الإمارات، وكانت تتكون من دهن الزعفران وعطره، يضاف إليهما المسك الأبيض، ودهن العود، والزباد، ويخلط المزيج ويفرك في طاسة حتى يتحول إلى عجينة سائلة، ويترك لمدة طويلة في الرمل حتى يكمر ويعتق وتتجانس روائحه.

حرفة التلي:

تعلم المشاهدون من خلال هذا الفيديو طريقة التلّي، وهو نوع من التطريز، يُصنع من خيوط ملونة مجدولة، ويُستخدم عادة في تزيين الجزء الأعلى من الثوب، والأكمام من اللباس التقليدي للمرأة الإماراتية.

يقوم التلي على نسج ست بكرات من الخيوط (الهدوب) الملونة، وتجمع أطرافها بعقدة مشتركة، تثبت بإبرة صغيرة على «مخدة الكاجوجة»، و«الكاجوجة»، هي مخدة قطن بيضوية، يثبت عليها التلي، لتساعد على تثبيت الخيوط ونسجها بدقة، حيث تسمح لها «الكاجوجة» برؤية مراحل حياكة «التلي»، وكيف يظهر فيها نسيج الخيوط الملونة.

الخياطة

تـم التعـرف إلى كيفيـة الخياطـة قديمـاً مـن خـلال اسـتخدام الإبـرة، ثـم ظهـرت «الكرخانـة»، وهـي ماكينـة الخياطـة في زمـن مـضى، كانـت ذات قيمـة كبـيرة عنـد النسـاء في المـاضي، فهـي أداة مسـاعدة في خياطـة الملابـس والتطريـز.

الموروث الشعبي زمن الأوبئة في الوطن العربي.. الإمارات والكويت أنموذجاً

وشـملت الاحتفاليـة نـدوة فكريـة افتراضيـة بعنـوان «المـوروث الشـعبي زمـن الأوبئـة في الوطـن العـربي.. الإمـارات والكويـت أنموذجـاً»، نظمهـا مركـز الـتراث العـربي، حيـث لاقـت تفاعـلاً مـن الحضـور بشـكل لافـت وحيـوي.

وقـدم النـدوة كُلّ مـن الدكتـور سـيف البـدواوي مـن دولـة الإمـارات، والأسـتاذ طـلال سـعد مبـارك الرميـضي مـن دولـة الكويـت، وأدارهـا الأسـتاذ فهـد المعمـري، حيـث أتيـح للجمهـور متابعـة هـذه النـدوة مـن خـلال الموقـع الإلكـتروني للمعهـد، وقنـاة محبـي الـتراث عـلى شـبكة يوتيـوب.

وناقـش المشـاركون الموضـوع الأبـرز في هـذا الوقـت، وكيـف سـتكون جائحـة كورونـا نقطـة تحـول في مسـار المجتمعـات المعـاصرة، ومـا سـيترتب عـلى ذلـك مـن مراجعـات، وإعـادة النظـر في كثـير مـن الاهتمامـات والأولويـات لـدى شـعوب ودول العـالم، في الوقـت الـذي وضعـت فيـه الحداثـة والتقـدم عـلى محـك الاختبـار أمـام هـذا الوبـاء.

وألقـى المشـاركون الضـوء عـلى التعبئـة النفسـية والاجتماعيـة في مواجهـة هـذه الجائحـة، ومـا قـد ينتـج عنهـا مـن ميـول للاسـتنجاد بالمعتقـدات والمخـزون الشـعبي، إضافـة إلى اسـتذكار مـا مـرت بـه المجتمعـات العربيـة مـن أزمـات وأوبئـة عـبر تاريخهـا، ومـا تحفـل بـه ذاكـرة الشـعوب، كـما النصـوص التاريخيـة، وذكـر العديـد مـن تفاصيلهـا وأخبارهـا، والكيفيـة التـي تعامـل معهـا الإنسـان العـربي، وتداخـل فيهـا البعـدان العلمـي والطبـي، والتوجيـه الدينـي الشرعـي، بالخـبرة المجتمعيـة والمـوروث الشـعبي، ولم يقتـصر تعاملـه مـع الأزمـات الكـبرى عـلى محاولـة الاسـتباق والتنبـؤ، بـل تعـدى ذلـك إلى

التوقع وتدبير الجائحة ومعالجة أضرارها، قبل وأثناء وبعد.

وتلخصـت محـاور النـدوة بالتركيـز عـلى موضوعـات المعتقـدات والمعـارف بالطبيعـة والكـون، ذات الصلـة بالجوائـح والأوبئـة، والحكايـات الشـعبية والخرافيـة، والأمثـال والألغـاز الحاملـة مضامـين الجوائـح والأوبئـة، والطقـوس والاحتفالات والممارسـات الاجتماعيـة المؤرخـة لزمـن الجوائـح وحيثياتهـا، والحـرف والمهـن، التـي يتناقلهـا الأفـراد والجماعـات، ذات الصلـة بالأوبئة والجوائـح.

منظور الموروث الشعبي

مـن جهتهـا، قالـت عائشـة الحصـان الشـامسي، مديـرة مركـز الـتراث العـربي: «تلقـي جائحـة كورونـا بظلالهـا في هـذه الفـترة عـلى مختلـف الأحـداث والموضوعـات، ضمـن شـتى المجـالات، وهـو مـا دفعنـا إلى تركيـز محـاور النـدوة عـلى مناقشـة هـذه الجائحـة مـن منظـور المـوروث الشـعبي، والتعمـق في بعـض الأحـداث التاريخيـة الشـبيهة بمـا نعيشـه اليـوم، مـع الأخـذ بعـين الاعتبـار الاختـلاف الكبـير في واقـع الحيـاة والحداثـة والتقـدم».

وأشـارت الشـامسي إلى الـدور الكبـير الـذي يقـع عـلى عاتـق الـتراث والمختصـين فيـه، في أرشـفة مثـل هـذه الأحـداث المهمـة، والنقـل الصحيـح لوقائعهـا مـن منظـور الإنسـان المعايـش لهـا، وفـق مختلـف الفئـات العمريـة، ومسـتوى التحصيـل العلمـي، لتكـون تجربـة تاريخيـة محفوظـة بذاكـرة الشـعوب، ومرجعـاً مسـتقبلياً للأجيـال القادمـة.

جديـر بالذكـر أن العـالم يحتفـل في الثامـن عـشر مـن إبريـل كل عـام باليـوم العالمـي للـتراث، حيـث جـاء اقـتراح المجلـس الـدولي للمعـالم والمواقـع (ICOMOS) بتحديـد يـوم الـتراث العالمـي بتاريـخ 18 إبريـل 1982، ووافقـت عليـه الجمعيـة العامـة لليونسـكو في عـام 1983، وذلـك بهـدف تعزيـز الوعـي بأهميـة الـتراث الثقـافي للبشريـة، ومضاعفـة جهودهـا اللازمـة لحمايـة الـتراث والمحافظـة عليـه، والعمـل عـلى تشـكيل إجـماع عالمـي عـلى هـذه الأهميـة، للقفـز بـه فـوق الحـدود الجغرافيـة الضيّقـة، والاختلافـات الأيديولوجيـة والعقائديـة، والنظـر إلى تـراث العـالم نظـرة واسـعة، باعتبـاره نتاجـاً بشريـاً خالصـاً، شـاركت في صنعـه شـعوب العـالم كلهـا، عـلى امتـداد تاريخـه الطويـل، ويعنـي كذلـك دعـوة مبـاشرة وصريحـة للعمـل المشـترك للحفـاظ عليـه، وإبـرازه بشـكل يليـق بـه، وهـو أيضـاً دعـوة إلى ضرورة التكاتـف والتدافـع لحمايـة الـتراث العالمـي؛ لأنـه جـزء لا يتجـزأ مـن تاريـخ البشريـة، ولعلـه الجـزء الأهـم، باعتبـاره نتـاج حضـارات إنسـانية متعاقبـة؛ ولأنـه يسـهم في تفسـير هـذه الحضـارات عـبر تاريخهـا الطويـل؛ لاسـتخلاص العـبر.

ملف العـدد

الأمراض والأوبئة عبر التاريخ

المعزل والطهف.. حجرُنا الماضي*

د. عبدالعزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

لا تخلـو الأزمـان مـن الأهـوال والمحـن، فـلا سـعادة دائمـة، ولا محنـة مسـتمرّة، والتغـير ديـدن هـذه الحيـاة، فلـكل شيء وقـت معلـوم، وللأفـراح والأحـزان بدايـة ونهايـة، والنـاس في امتحـان كبـير، مـا دامـوا في هـذه الحيـاة، وفي الـتراث الإمـاراتي حـول هـذا الموضـوع أسـماء لهـا دلالات في المعنـى والذاكـرة.

مـن تلـك الأسـماء «المعـزل»، و«الطهـف»، فالمعـزل في الـتراث الإمـاراتي هـو الحجـر الصحـي، ويُلفـظ «مْعَـزَلْ» بتسـكين أولـه وآخره، وفتـح الحرفـين الأوسـطين، فقـد وعـى أجدادنـا منـذ زمـن بعيـد إنشـاء المعـازل؛ أي الحجـر الصحـي، فأنشـئت في منطقـة الممـزر بـين الشـارقة ودبي 3 معـازل رئيسـة، هـي كالآتي:

- معـزل «الميـدّر»: الميـدر أصلهـا المجـدر؛ أي المصابـون بمـرض الجـدري.
- معـزل «الميـذّم»: الميـذم أصلهـا المجـذم؛ أي المصابـون بمـرض الجذام.
- معـزل «الميـنّن»: الميـنن أصلهـا المجنـن؛ أي المصابـون بالجنـون.

وقـد كان أهـل الشـارقة يعـودون مرضاهـم مـن وقـت لآخـر، عنـد انحسـار مـاء البحـر (الجـزْر) الفاصـل بينهـم وبـين المعـزل، كـما أنهـم يحرصـون عـلى أن يبتعـد زائـر ذلـك المـكان مسـافة كافيـة؛ تقيـه شرّ العـدوى، أمـا مهمـة رعايـة المـرضى، وتزويدهـم بالطعـام والـشراب والاحتياجـات الأخـرى، فهـي مهمـة تـوكل لمـن أُصيبـوا بالمـرض ذاتـه سـابقاً (الجـدري والجـذام، عـدا الجنـون طبعـاً)!.

ولا يُعـرف بالضبـط التأريـخ الفعـلي لتأسـيس تلـك المعـازل، لكـن الـرواة يتداولـون ذكرهـا منـذ أجيـال، فممـن التقيناهـم مـن الـرواة مـن مواليـد 1928 إلى 1939، قالـوا إنهـم سـمعوا عنهـا مـن أجدادهـم؛ أي أنهـا كانـت موجـودة في القـرن الـ19.

أمـا الطهـف فهـو الريـح العاتيـة، وقـد مـرّ علينـا في الإمـارات العربيـة المتحـدة أكـثر مـن طهـف، سـواء في الـبر أو البحـر، وقـد تهدّمـت البيـوت، وغرقـت السـفن، ومـات مـن مـات، وتـشرّد مـن تـشرّد، لكـنّ النـاس تعاونـوا لمجابهـة أهـوال الطهـف، رغـم قلـة الإمكانـات، واتكلـوا عـلى اللـه، واحتسـبوا كل شيء عنـده.

إن المـآسي والمحـن تبـيّن معـادن النـاس، وتكشـف عـن حقيقـة نواياهـم، فالخـير يظهـر في الشـدة، والكـرم يظهـر في وقـت العـوز، أمـا الـكلام عـن ذلـك فكثـير، ولا يأخذ النـاس بقـول أحدهـم عـن نفسـه، والأمثـال الشـعبية في ذلـك كثـيرة، ومنهـا «لي مـا زارني والديـار مْخِيفـه لا مرحبـا بـه والديـار أمـان».

* مقال نشر بتاريخ 2020/3/22 في صحيفة الرؤية

أمراض وأوبئة هاجمت الخليج تاريخياً

يعيش العالم في حالة قلق وذعر غير مسبوقين؛ في ظل الانتشار المتسارع لفيروس كورونا المستجد، المعروف طبياً بـ«كوفيد 19»، ودهمه معظم الدول بمختلف القارات، وبموازاة ذلك شكلت دول خليجية لجاناً على أعلى المستويات، مهمتها إدارة الأزمة التي شلّت العالم بأسره، ويُعيد الفيروس المميت إلى الأذهان ما عاشته الجزيرة العربية ومنطقة الخليج من تاريخ حافل بالأوبئة والأمراض المعدية، حيث اجتاح «الطاعون» شبه الجزيرة العربية عام 1831، وصادف ذلك الوقت موسمي الغوص والسفن الهندية التجارية.

سيف البدواوي: أكثر من 25 مرضاً كان منتشراً في الماضي

وقال المؤرخ الدكتور سيف البدواوي، وجد أكثر من 25 مرضاً منتشراً في الماضي، حيث كانت تضرب المنطقة أمراض مستعصية، تخوّف الأهالي، وتبث الرعب في نفوسهم، كالجدري، ويكفي ما كان يحصده هذا المرض من أرواح كثيرة، وكذلك الطاعون والجذام، فضلاً عن بعض الأمراض المستوطنة الأخفّ ضرراً، كالتيفوئيد والحصبة والملاريا، والتي لا يعرف لها دواء سوى الوسم والوصفات الشعبية، كما هاجم الطاعون مدن الخليج في فترات مختلفة، خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتعكس التقارير البريطانية والروايات التي كتبها الأطباء المعالجون والرحالة وغيرهم حجم المأساة، ولعبت عوامل عدة في تمكن الوباء من الفتك بأعداد كبيرة من الناس، بسبب قلة الرعاية الصحية، وجهل الناس بالمرض، وعدم تطبيق إجراءات ولو بحدّ أدنى في الموانئ التي ينتقل بها المسافرون من مكان إلى آخر، وينتقل معهم المرض من مدينة إلى أخرى، والغريب في الأمر أن هذا الوباء يهاجم بغتة، ويختفي فجأة، ويتحرك في أكثر من منطقة بالوقت نفسه، أو في أوقات متقاربة، ولقد كانت هناك وسيلتان أساسيتان لانتقال الطاعون، الأولى المسافرون الذين يقدمون عن طريق السفن من مختلف المناطق القريبة من الخليج، إما للتجارة أو للزيارة، وتكمن الخطورة في اختلاط المسافرين مع بعضهم على ظهر السفن الضيقة، وهذه فرصة كبيرة لانتقال العدوى بسهولة بينهم، والوسيلة الأخرى كانت الاختلاط بين أعداد كبيرة من الغاصة والبحارة على ظهور سفن الغوص التي تبحر أربعة أشهر في الصيف من كل عام، فالتجمعات البشرية الكبيرة هي المجال الخصب للأوبئة، مضيفاً أنه في عام 1914م أو قبله بقليل، حصد الطاعون كثيراً من الأهالي، وبات الناس في المقابر يدفنون موتاهم، ولكثرة الموتى في هذا المرض سُمي العام بـ«عام الرحمة»؛ أي أن الموت كان رحمة للمريض من عناء ما فيه، كما أن من الأمراض التي كانت تنتشر في البلاد مرض الجذام الذي تتقرّح أعضاء الجسم

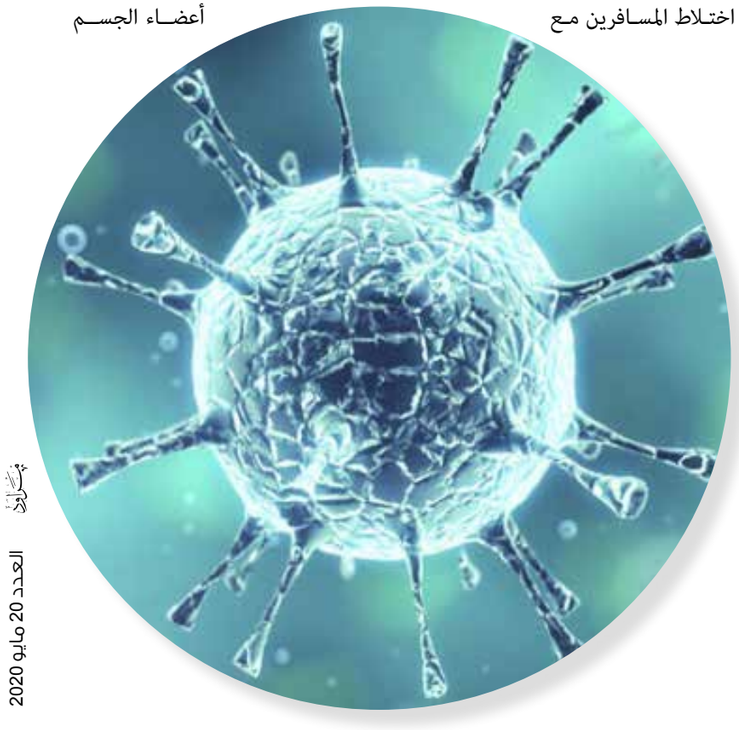

بسببه وتسقط، فكان العلاج عبارة عن ربط العضو بشيء من القماش حفاظاً عليه من التأثير الخارجي، وكانت هذه الأمراض مزعجة للسكان، وكبيرة التأثير فيهم، وتهدّد حياتهم، وكان مرضى الجذام يعزلون في منطقة الوحيدة المقابلة لميناء الحمرية حالياً، وتخصص لهم مقبرة بجانب سكناهم، لدفن الموتى فيها.

وأوضح أنه في عام 1935 م، تم اكتشاف مرض الجدري في إمارة رأس الخيمة، التي أطلق عليها سنة انتشار مرض الجدري في دولة الإمارات، مضيفاً أنه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت المطارات، وكانت تأتي بالتجار من الهند وإفريقيا، فكانت تعتبر مصدراً أساسياً من مصادر انتشار الأمراض، حتى إنه تم عمل حجر صحي في مطار الشارقة للقادمين لمدة أسبوع في هذا التوقيت.

> فاطمة المغني: الإمارات انتصرت على الأوبئة في الماضي وستنتصر في الحاضر

حيث قالت الباحثة فاطمة المغني: ما أشبه اليوم بالبارحة! الإمارات دائماً تتحدى وتنتصر، والتاريخ يعيد نفسه، ولكن الذي يختلف اليوم عن الماضي هو اختلاف البيئات وأعداد السكان، ففي الماضي كانت أعداد السكان لا تتجاوز الآلاف، أما اليوم فتتجاوز الملايين، كما أنه في الماضي كانت المسؤولية تقع على عاتق المجتمع، أو كما تسمى مسؤولية اجتماعية؛ لأن البيت الواحد يضم العائلة كلها، سواء الخالة أو العم أو العمة، فكانت مسؤوليتهم مجتمعين، ولا توجد إمكانات طبية عالية مثل الآن، وهناك كفاءات طبية وأدوات ومتطوعين، أما في الماضي فكانت الأدوية عبارة عن أدوية طبيعية.

وأضافت كانت تستخدم أشجار الكرز المعمرة في التداوي وتعقيم الجراح، والجسد، وكذلك كانت المعازل تقام

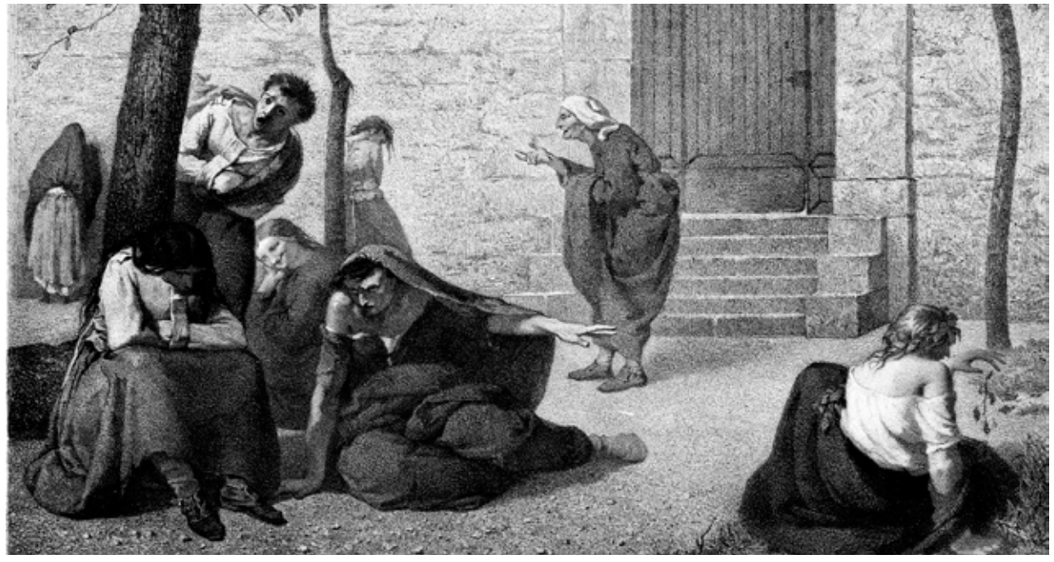

تحت الأشجار الطبيعية، في مكان بعيد عن المدن، كما كان يتم استخدام مياه البحر لمداواة الجراح، والفواكه الطبيعية كغذاء لجميع الأمراض لتقوية المناعة بشكل جيد.

وأضافت أنه عام 1911م، اجتاح مرض الطاعون ساحل عمان، (وهذا هو الاسم القديم للإمارات)، مما أودى بحياة ما بين 400 و500 شخص، وظل المرض منتشراً لبعض الوقت؛ بسبب صعوبة المواصلات ووسائل الاتصال، وهذا بدوره أدى إلى تأخر المكاتبات، إضافة إلى جهل الناس بهذا المرض، وطرق الوقاية منه. وانتشر هذا المرض بسبب الاختلاط بين البحارة الهنود والرعايا الآخرين وسكان المنطقة، إضافة إلى وصول بعض المصابين بهذا المرض إلى دبي قادمين من لنجة، وكان وصول أعداد كبيرة من التجار والبحارة بعد توسع التجارة مع دبي، سبباً في انتقال جرثومة المرض، وقدر عدد المصابين في دبي بنحو 2000 شخص، ونحو 500 شخص في الشارقة، واختفى المرض بالسرعة نفسها التي ظهر بها.

كما اجتاح وباء «الإنفلونزا الإسبانية» أو جائحة «إنفلونزا 1918»، العالم بأكمله في أعقاب الحرب العالمية

الأولى، وخلفت ملايين القتلى، ولم تكن الجزيرة العربية بمنأى عن تلك الجائحة؛ إذ أطلق على هذا العام لقب «عام الرحمة»، و«عام الصخونة»، وفسّر باحثون سبب التسمية بكثرة الترحم على الموتى، ولأن هذا الوباء القاتل كان يصاحبه ارتفاع كبير في درجة حرارة المصاب، وبحسب ما تناقله الآباء عن الأجداد، فإن أعداد الموتى قدرت بالآلاف، وأباد مدناً بأكملها، قيل إن النعوش تكسرت من كثرة الموتى، حتى وصل بهم الحال إلى الاستعانة بأبواب المنازل، والبسط في نقل الموتى إلى المقابر، يقول الكاتب السعودي محمد عبدالله العوين، في مقال في إحدى الصحف السعودي «مات خلق كثير، لا يُعلم عددهم في كل مدينة وقرية في نجد والحجاز والأحساء ودول الخليج والعراق»، كما أورد أن نجد فقدت أعياناً وأمراء. وفي ذلك الوقت انشغل الناس بحفر القبور طوال اليوم، لا يشغلهم عن ذلك سوى وقت الصلاة، أو لقيمات تعينهم على العمل. أما عن سبل مكافحة «الإنفلونزا الإسبانية» فقيل إن الأجداد لجؤوا إلى عزل المرضى في بيوت وأماكن في أطراف البلدة، أو خارج أسوارها؛ تجنباً لاختلاطهم بالأصحاء.

كما قيل أيضاً إنهم أخذوا من صديد المرضى، وقاموا بتطعيم بقية الناس بطرق بدائية، للحيلولة دون انتشار الوباء، إلى جانب التداوي بالأعشاب والتركيبات الدوائية لمكافحة المرض. وفي فترة النقاهة؛ أي بداية تعافي المريض من الوباء، لجأ الأجداد إلى جمع عينات من جميع الأطعمة المتوافرة في البلدة، وطبخها في إناء واحد، وتسمى (القِرُو)، يأكلها المريض أو يشرب ماءها المطبوخ كنوع من الحيطة.

أما سلطنة عُمان فقد عرفت العديد من الأمراض والأوبئة بأنواعها المختلفة، منها ما يعود للوعي الصحي، وبعضها

لانتشار أسراب البعوض والذباب، بالإضافة إلى الإمكانات الطبية والتواصل التجاري عبر البحر مع بعض الدول القريبة والمحيطة، أبرزها الهند. وتناقل مؤرخون، من بينهم الدكتور روز بنرجر، في كتابه حكايات لرحلة حول العالم خلال الأعوام 1835 – 1836 – 1837، أن الكوليرا قتلت 10 آلاف شخص من رعايا سلطان عُمان، في يونيو 1821، ثم اجتاحت مسقط وبقية البلاد مجدداً عام 1865، وكان مصدرها سفناً تجارية قادمة من زنجبار، يحمل بعض ركابها المرض الذي انتقل إلى المدينة من الهند. ورغم أن نشاط الملاحة البخارية أواخر القرن الـ19 كان له أثر إيجابي في نقل التجارة والأفراد والبحارة من السلطنة إلى موانئ الخليج والهند؛ فإنه حمل آثاراً سلبية أثرت في الحالة الصحية في السلطنة. ونقلت تلك الحالة التجارية عدوى الأمراض الوبائية المختلفة، مثل الطاعون والكوليرا والجدري، خاصة الطاعون القادم من الهند عام 1897، وهو ما أجبر سلطان البلاد آنذاك على اتخاذ إجراءات وقائية لمقاومة وصول المرض، بمساعدة من القنصلية البريطانية في مسقط.

ويوضح مؤرخون أن من بين تلك الإجراءات منع نزول الأشخاص والأدوات، غير البريد، من السفن التي تحمل مصابين بالطاعون أو حتى مشتبهاً فيهم، كما اشترط على ركاب السفن السليمة أن يُحتجزوا تحت المراقبة في منطقة تبعد ميلاً ونصف الميل عن مسقط، لمدة 9 إلى 10 أيام.

> خليفة الطنيجي: الطاعون هاجم الخليج في فترات مختلفة خلال النصف الأول من القرن العشرين

وقال الباحث والكاتب خليفة بن حامد الطنيجي يمثل تاريخ الأحوال الصحية جانباً مهماً من تاريخ المجتمعات، حيث تتأثر جوانب الحياة بمستوى الصحة العامة ،وقد عانى مجتمع الإمارات كغيره من المجتمعات التي تعتمد على التجارة و السفر في وصول الأمراض و الأوبئة إلى المنطقة في الحقب السابقة،فقد هاجم الطاعون مدن الخليج في فترات مختلفة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتعكس التقارير البريطانية والروايات التي كتبها الأطباء المعالجون والرحالة وغيرهم حجم المأساة ، ولعبت عوامل عدة في تمكن الوباء من الفتك بأعداد كبيرة من الناس بسبب قلة الرعاية الصحية وجهل الناس بالمرض ،بعد سنوات طويلة ومريرة ذاقها أبناء منطقة الخليج من انتشار الأوبئة، أصبح هناك نوع من الحذر والترقب وخاصة لوباء الطاعون الذي من الممكن أن يداهم أي مدينة من دون سابق إنذار،وليس ببعيد عن الذاكرة انتشار مرض الجدري في الإمارات أواخر العام 1935 مما استدعى الحكام لطلب المساعدة من الخارج لتوفير التطعيمات قبل ان يفتك المرض بالبشر ،حيث أنه في يوم 4 يناير من عام 1936 وصل الطبيب المعين محمد سلمان سطور وبدأ عمله بتطعيم سكان إمارة الشارقة، ليتوجه بعدها إلى إمارة رأس الخيمة لإتمام عملية التطعيم.

وما تلاه من عوده الأمراض والأوبئة في الإمارات بعد الحرب العالمية الثانية حيث زار مرض الجدري الساحل في أوائل الستينات حيث ظهر تكاتف المجتمع الإماراتي في جميع الأزمات، ولم يكن زمن كورونا هو الأول من نوعه في التزام الأفراد بالإجراءات الصحية للحجر الطبي، وإبراز روح الإنسانية المعهودة بالإمارات ففي تلك الفترة نجحت تجربة إنشاء الحجر الصحي لوقف زحف المرض وهي تجارب توكد ريادة الإمارات منذ زمن .

وخلاصة القول لقد حققت البشرية أحياناً تقدماً اجتماعياً مهماً على أنقاض كوارث كبرى، فشهدت زوال النظام الإقطاعي في أعقاب وباء الطاعون الأسود، وقيام نظام الرعاية الاجتماعية إثر الحرب العالمية الثانية، لذا فلن تعود الكرة الأرضية مثل ماكانت قبل عصر كورونا .

طلال الرميضي: «سنة الرحمة» مات من سكان الكويت أكثر من 60%

وأشار الباحث الكويتي طلال الرميضي إلى أنه في عام 1773م ضرب الطاعون العراق وبغداد والبصرة، وقتل نحو 35 ألف شخص، ظهر الطاعون في مدينة البصرة، وسرعان ما ارتفعت الوفيات الناتجة عن هذا الداء إلى 1000 حالة وفاة في اليوم، ويقال إنه حصد أكثر من 200 ألف نسمة في البصرة والمناطق المجاورة لها، حتى إن القاضي المؤرخ الرحالة عبدالرحمن عبدالله السويدي البغدادي، خرج من العراق سنة 1186 هجرية (1772م)، وانتقل إلى الكويت من الطاعون الجارف الذي أصاب العراق، وفي عام 1821م أصاب الكوليرا منطقة الخليج العربي، وكان مصدره الأول هو الهند، من خلال السفن التجارية.

وفي عام 1831م انتشر في الكويت وباء الطاعون، وسميت تلك السنة بسنة الرحمة! حيث مات من سكان الكويت آنذاك 60%، وهلكت عائلات بأكملها! ولم ينجُ من بعض الأسر إلا رجالها، حيث كانوا في رحلة تجارية للهند، فعاد أغلبهم ليُفجعوا بأهلهم وأولادهم! حتى إن أحد التجار ذهب ليحرق منزل أسرته التي وجدها ميتة داخل المنزل بالكامل! وهرع الناس جهة الشرق وجهة الغرب، هرباً من الموت، وسكنوا عششاً في منطقة الشويخ في الكويت! أسرة واحدة لم يذكر التاريخ اسمها لم يمت منها أحد، حيث أغلقت بابها ورفضت فتحه حتى ينجلي الوباء، أصرت زوجة ابنهم على

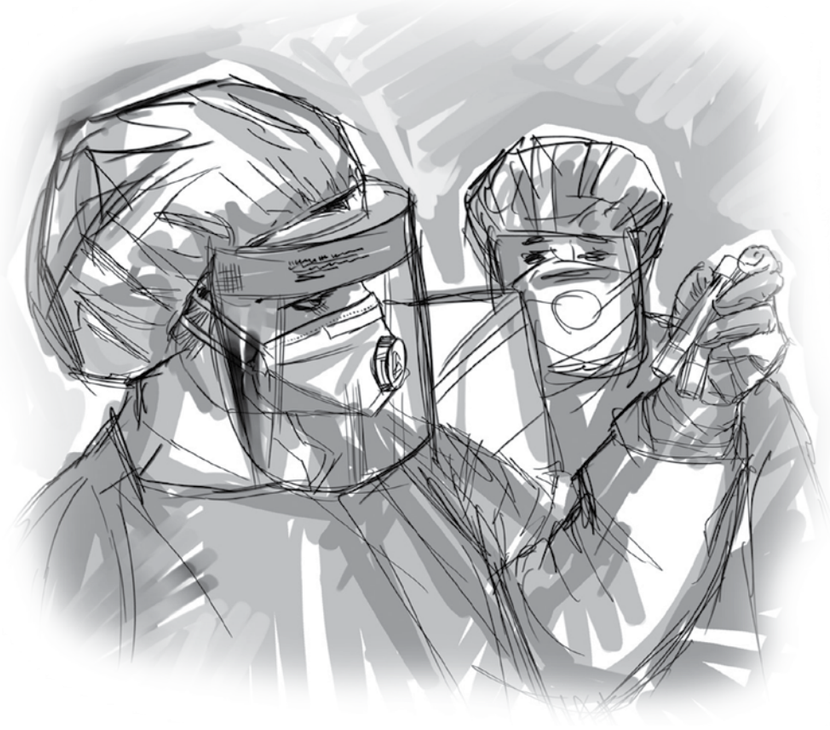

زيارة أهلها، والاطمئنان عليهم، فلم يسمح لها أهل البيت بالخروج، ولم يفتحوا لها الباب، فاستعانت بحبل تعلقت به من فوق سطح المنزل لتنزل من السطح إلى الشارع، ثم تذهب، دقائق استغرقتها للذهاب إلى منزل أهلها لتكتشف موتهم جميعاً! عادت سريعاً لبيت أهل زوجها، لكن رفض أهل البيت أن يفتحوا لها، وتوفيت على عتبته، بسبب ما أصابها من الوباء في زيارتها أهلها، وفي سنة 1932م التي سميت سنة الجدري، بدأ الجدري في إيران، ثم انتشر في الخليج، وأصبح وباء في يوليو حتى نهاية السنة، وقدرت الوفيات بالكويت بثلاثة آلاف نسمة، أغلبهم من الأطفال، والذين تشافوا أصيب بعضهم بالعمى أو بتشوّه في الوجه، والكبار أغلبهم سبق لهم أن طعّمهم الشيخ مساعد العازمي ضد الجدري.

وعن طرق العلاج في الماضي أوضح أنه كان هناك بعض الجهود المبذولة من قبل الحكام، حيث تم إصدار قرار بخروج بعض الأهالي لخارج الكويت؛ لحمايتهم من الطاعون، واستخدام بعض الأعشاب الطبيعية وخلاف ذلك من الطب الشعبي، كما كان المصاب بمرض الجدري يوضع في خيمة خارج المنزل، ويقومون بوضع الأكل له بعيداً، وهذا كان العلاج الوحيد، مضيفاً: وأتذكر أن هناك رجلاً له الفضل الكبير بعد الله سبحانه وتعالى، هو الشيخ مساعد العازمي، أول طبيب كويتي، في عام 1885م تقريباً غادر الكويت إلى مصر، وتعلم الفقه المالكي والنحو والعروض والتلقيح ضد الجدري، عندما كان يتلقى التعليم بمصر، سار منها إلى اليمن، وبقي فيها نحو السنة، ثم غادرها ماراً برأس الخيمة، ومكث فيها وأخذ يعرض للناس فائدة التلقيح، ويذكرهم بالأخطار التي تتهدد أطفالهم، بعد سنوات قليلة غادر رأس الخيمة إلى الأحساء على جمل، ومكث في الأحساء مدة، وأخذ يتزود خلالها بالعلم على مشايخها، وفي الوقت نفسه كان يباشر مهنة التلقيح، ثم سافر من الأحساء إلى بلده الكويت.

سعيد الظهوري: «الجدري» هاجم الخليج في الثمانينيات

وأوضح الباحث سعيد الظهوري أن ما تعانيه البشرية اليوم من تداعيات بسبب فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) يرجعنا إلى تاريخ حافل من الصراعات مع الكثير من الفيروسات التي اجتاحت كوكبنا، ومع هذا تمكن الإنسان من التغلب عليها، ومن أهمها الفيروسان الأكثر شهرة في تاريخ الإنسان، اللذان عُرفا بالحصبة والجدري، وهما مختلفان عن بعضهما بعضاً؛ فالحصبة فيروس قديم، ويعد أول من عرفه وأعطى وصفاً عنه الطبيب العربي أبوبكر الرازي، أما فيروس الجدري الذي يسمى باللهجة الإماراتية «حميقة» الذي هاجم الخليج ودولة الإمارات في السابق، خلال الثمانينيات، ومرض الجدري أتى رأس الخيمة في عهد الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، رحمه الله، حاكم رأس الخيمة في تلك الفترة، وحين تفشى المرض لجأ الأهالي لعزل المرضى في أماكن بعيدة، أطلق عليها «معزل الميدر»، نسبة إلى مرض الجدري، وهي أبنية سعفية مكونة من مظلات من سعف النخيل، مكشوفة الجوانب، أو مظلات من القماش الذي تصنع منه أشرعة السفن، أو من الشوادر، وفي الشتاء تغطى الجوانب كي تقيهم البرد، كما أطلق عليها اسم «العشيش»؛ لأنها تشبه العش في شكلها، وكان المعزل في أقصى شمال مدينة رأس الخيمة القديمة، كما أن هناك مرضاً آخر ضرب دولة الإمارات السعال الديكي «الشاهوق» باللهجة الإماراتية.

الإمارات دائماً تتحدى وتنتصر

الأرشيف الوطني ينشر وثائقياً عن انتشار الجدري 1935م

التاريـخ يُعيـد نفسـه، ومـا أشـبه اليـوم بالأمـس، ليـس «الكورونـا» في زمننـا أعتـى وأشـد فتكاً مـن الجـدري حينـذاك، اليـوم لنـا عِـبرة في دروس الأمـس، بالأمـس الجـدري واليـوم كورونـا.. »هـذا الوقـت سـيمضي«، الإمـارات دائمـاً تتحـدى وتنتـصر، بهـذه الكلـمات بـدأ الأرشـيف الوطنـي وثائقيـاً نـشره عـبر حسـاباته الرسـمية في مواقـع التواصـل الاجتماعـي «إنسـتغرام» و«تويـتر»، لأحـداث وقعـت عـام 1935 في إمـارة رأس الخيمـة، والتـي أطلـق عليهـا سـنة انتشـار مـرض الجـدري في دولـة الإمـارات، مـما دعـا حاكـم الإمـارة وقتهـا، المغفـور لـه بـإذن اللـه، الشـيخ سـلطان بـن سـالم القاسـمي، إلى إرسـال خطـاب في 15 ديسـمبر إلى الوكيـل السـياسي في البحريـن، لإرسـال طبيـب؛ ليقـوم بتطعيـم أهـالي الإمـارة. وقـام الوكيـل السـياسي بإرسـال برقيـة إلى الوكيـل السـياسي في بوشـهر، يعلمـه أن الإصابـات بالجـدري في الإمـارات بازديـاد، وأنـه سـوف يقـوم بإرسـال التطعيـمات لأهـالي رأس الخيمـة، كـما أخـبره بانتشـار المـرض في دبي والحـيرة وأم القيويـن. ويشـير الوثائقـي إلى أنـه تمـت الموافقـة عـلى إرسـال 1000 جرعـة مـن التطعيـمات، وفي 2 ينايـر 1936 سـجّل الوكيـل السـياسي في البحريـن، اللفتنانـت كولينـال جـوردن، أن هنـاك 100 إصابـة و12 وفـاة في الشـارقة، و30 إصابـة و4 حـالات وفـاة في رأس الخيمـة، وظهـرت 80 إصابـة و4 وفيـات في أم القيويـن، و15 إصابـة و7 وفيـات في عجـمان، و30 إصابـة وحالتـي وفـاة في الحـيرة، فيـما سـجلت دبي أكـبر حـالات الإصابـات، إذ بلغـت 500 إصابـة و60 وفـاة. ويـسرد الوثائقـي أنـه في يـوم 4 ينايـر مـن عـام 1936 وصـل الطبيـب المعـين محمـد سـلمان سـطور، وبـدأ عملـه بتطعيـم سـكان إمـارة الشـارقة، ليتوجـه بعدهـا إلى إمـارة رأس الخيمـة؛ لإتمـام عمليـة التطعيـم، وفي دبي، ولدرايـة المغفـور لـه بـإذن الله، الشـيخ حـشر بـن مكتـوم، بعمليـة التطعيـمات، قـام الوكيـل الوطنـي خـان صاحـب حسـين، بإعطـاء التطعيـمات إلى المغفـور لـه بـإذن اللـه، الشـيخ سـعيد بـن مكتـوم. وفي يـوم 12 ينايـر وصـل الطبيـب هولمـز لإمـارة الشـارقة، وقـام بزيـارة المغفـور لـه بـإذن اللـه، الشـيخ سـعيد بـن مكتـوم، كـما شـارك في تطعيـم أهـالي دبي، خـلال فـترة وجـوده، حيـث بـدأت حـالات الإصابـة بالانخفـاض إلى 22 إصابـة و9 وفيـات، و24 حالـة شـفاء بالكامل. وفي شـهر مـارس 1936 وصـل معـدل الإصابـات إلى 115 إصابـة و61 وفـاة، و89 شـفاء، ومنـذ ذلـك الحـين أصبـح المعـدل في انخفـاض مسـتمر إلى أن توقـف مـع نهايـة عـام 1936، ليمـضي التاريـخ بمـرض الجـدري، واليـوم تتصـدى الإمـارات بمنهجيـة وإجـراءات اسـتباقية لفـيروس كورونـا المسـتجد.

ملف العـدد

«سارة هوسمان»

أول مستشفى في الشارقة

يعدّ التاريخ الطبي في إمارة الشارقة مرآة عاكسة للحياة الصحية للسكان، وتكشف لنا السجلات الصحية التي تم توثيقها لاحقاً، عن أبرز الأمراض الوبائية، المعدية وغير المعدية، التي ظهرت في المنطقة، والإجراءات الوقائية والاحترازية التي قيّم بها، من أجل معالجتها، وتفادي انتشارها بين السكان، ومن أشهر تلك الأمراض: الجدري والحصبة والتراخوما والملاريا والسعال الديكي والسل والأمراض المعوية والإنفلونزا وأمراض الحصى في الكلى.

وكانت الخدمات الطبية في إمارة الشارقة، التي يرجع تاريخها إلى عام 1908، من خلال عيادة الدكتور شارون توماس، تعمل على معالجة المرضى، وتحسين المستوى الصحي للسكان، بما يتناسب مع الإمكانات المتوافرة

في ذلك الوقت، والتي تطورت باطراد مستمرّ، بفعل التوجهات الرسمية التي عملت على توفير أحدث الخدمات الطبية لكل المرضى، وتتمتع الشارقة بالعديد من المستشفيات والمؤسسات الطبية والعلاجية الحديثة، التي زوّدت بأحدث الأجهزة المستخدمة في مجال الطب في العالم.

ويعدّ مستشفى «سارة هوسمان» أول مستشفى في إمارة الشارقة، تأسس عام 1952، في بيت الشيخ محمد بن صقر القاسمي، والد صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، وقد ارتبط اسم المستشفى باسم الطبيبة الأمريكية الدكتورة سارة هوسمان، التي جاءت ضمن الإرسالية التبشيرية الأمريكية.

وفي عام 1938، استقالت سارة هوسمان من الإرسالية، بغية التفرغ لتقديم خدماتها الطبية لسكان المنطقة، من خلال عيادة المحطة العسكرية، التي توافد إليها كثير من النسوة للعلاج، ونتيجة لظروف الحرب في ذلك الوقت، فقد تقرر نقل العيادة النسائية إلى وسط المدينة، وتم افتتاحها في عام 1940، وهي النواة الأولى للمستشفى الذي تأسس لاحقاً كما تقدّم.

وقد احتفت أيام الشارقة التراثية في دورتها الرابعة عشرة، التي نظمت عام 2016، بمستشفى سارة هوسمان، من خلال تخصيص قسم يحاكي مبنى المستشفى في القرية التراثية، حيث وضعت بعض قطع الأثاث والأدوات التي كانت مستخدمة في المستشفى آنذاك. وكان المستشفى مكوناً من طابقين، ومبنياً من الطابوق على مساحة واسعة، ويتكوّن من أربع غرف في الطابق الأول، للعيادة والخدمات الطبية، وغرفة الصيدلية، وأربع غرف في الطابق الثاني، خُصصت كسكن للطاقم الطبي، في حين خُصصت الساحة الداخلية في العيادة كمكان لانتظار المرضى. وقد أسهم هذا المستشفى، الذي يعدّ من أوائل المستشفيات في منطقة الخليج، في تحسين الأوضاع الصحية للنساء، وقد ولِد فيه كثير من أبناء الإمارة، ولاتزال الجدات والأمهات يحتفظن بذكريات جميلة عن تاريخ المستشفى.

العالَم تحت رحمة كورونا

الفيروس تسبّب في اتخاذ الحكومات قرارات بالتقوقع والانعزال عن محيطها

يلقي شبح فيروس كورونا بظلاله الثقيلة على العالم، فلا تكاد تخلو دولة في العالم من المصابين بالفيروس، ناهيك عن التداعيات الاقتصادية التي ناهزت مليارات الدولارات، والكل يسعى في سبيل إيجاد علاج؛ حتى ينتهي العالم من هذا الكابوس الذي تسبب في شلل الحياة، وأصبح الناس يعيشون في ذُعرٍ وقلقٍ خوفاً من إصابتهم بالفيروس، ولم يواجه العالم تحدياً مثل هذا منذ الحرب العالمية الثانية؛ لذا فإن إيجاد علاج لهذا الوباء صار مهمة العالم بأسره، حيث إنه انتشر بسرعة كبيرة، وحصد آلاف الأرواح، وخلق حالة من الترقب والخوف في كل أنحاء العالم، وتعاملت حكومات العالم بصرامة شديدة، وفرضت كل أنواع الإجراءات الاحترازية الممكنة لمنع ظهور الفيروس، أو حصر انتشاره بأكبر قدر ممكن، حيث يعيش العالم هذه الفترة أحلك الظروف، في ظلّ تواصل انتشار فيروس كورونا المستجد، بصفة تجاوزت التوقعات في العديد من الدول، حتى إن بعضها تجاوز الصين بؤرة انتشار كورونا، كما أن هذا الفيروس تسبّب في اتخاذ العديد من الحكومات قرارات بالتقوقع والانعزال عن محيطها، وأجبر دولاً عديدة على إغلاق حدودها، وتعليق الرحلات الجوية والبحرية، وإلغاء فعاليات ثقافية ورياضية وترفيهية عدة، ومنع التجمعات، بما فيها صلوات الجمعة والجماعة، وعززت دول عدّة في الأيام الأخيرة إجراءات التصدي لانتشار الوباء، حيث بات العديد منها في عزلة تامة، نتيجة غلق حدودها، وتم تعليق كل الرحلات الدولية، مثلما حصل في دول الاتحاد الأوروبي، وفي أغلب الدول العربية.

عبدالخالق عبدالله

دولة الإمارات طبّقت مبدأ التعاون والتضامن العالمي لمواجهة الوباء

حيث قال الدكتور عبدالخالق عبدالله، أستاذ العلوم السياسية: في زمن كورونا الجهود الدولية تقريباً غائبة، حيث لجأت معظم الدول الكبرى، إلى التنافس، في الوقت الذي يحتاج فيه العالم إلى التضامن والتعاون في ظل هذه الظروف الصعبة التي تمر على البشرية، كما غابت القيادة العالمية الملهمة، التي تستطيع أن تنقذنا من هذا الوباء القاتل، ولكن النقطة المضيئة، أن هناك دولاً آمنت بالأخوّة الإنسانية، وطبقت مبدأ التعاون العالمي في مواجهة واحد من أخطر الأوبئة التي مرت على البشرية، ومن بين هذه الدول القليلة دولة الإمارات العربية المتحدة، التي طبقت هذا التعاون فعلاً وعملاً، وليس قولاً، خاصة أن الإمارات سجلها ناصع في مجال العمل الإنساني، لذلك أخذت مبدأ التضامن والتعاون الدولي لمواجهة خطر كورونا، هذا الموقف الإنساني أكسب الإمارات الكثير من الاحترام والتقدير، وجاء أفضل تعبير عن ذلك في كلمة الرئيس المصري ألكسندر فوشيك، الذي شكر الإمارات على إرسال 12 طناً من المساعدات الطبية العاجلة إلى صربيا، قائلاً: «كان الشعب المصري ينتظر أن يأتيه العون من الاتحاد الأوروبي، لكن دول أوروبا انشغلت بحالها، وأدارت ظهرها لنا، وجاء العون العاجل من دولة صديقة لنا، هي الإمارات». كانت تلك واحدة من بين عشرات رسائل الشكر التي قيلت بحق الإمارات، خلال انشغال الجميع باحتواء هذا الفيروس العابر للقارات.

وأوضح الدكتور عبدالخالق أن كورونا انتشر سريعاً، وضرب العالم في مأمن، وبأقل قدر من الاستعداد المسبق. وجاءت ردود غالبية دوله مرتبكة،

لسان حالها يقول نفسي نفسي، حالي حالي، رغم أن ظروف كورونا الاستثنائية كانت تتطلب تعاوناً دولياً أكثر من أي وقت آخر. قلة قليلة تعاملت مع كورونا كتحدٍّ عالمي يستوجب عملاً جماعياً، وليس فردياً وأنانياً. ومن بين هذه القلة برزت الإمارات، التي أعلنت أنها لا تتحمل مسؤولية صحة المواطنين والمقيمين على أرضها فحسب، بل تحمّل نفسها أيضاً مسؤولية صحة وسلامة الملايين خارج الإمارات؛ لذلك برزت الإمارات كنموذج للإيثار الذي يعني من بين أمور عديدة، أن تقدم الغير على نفسك، وتفضل الخير للآخرين على الخير الشخصي، وأن تعطي أولوية لصحة وسلامة وسعادة البعيد. وأرقى أشكال الإيثار التضحية بالغالي والثمين، في زمن العسر والكوارث. والإيثار أعظم أجراً من الصدقة. ويقال إن الإيثار صفة فطرية من صفات الأمومة. طبقت الإمارات الإيثار فعلاً، وليس ادعاء، ففي الوقت الذي تهافتت دول العالم لاحتكار المعدات والأدوية، وتنافست لاقتناء الملابس الطبية الضرورية، كانت الإمارات كالأم الرحيم، تقدم كل ذلك مجاناً لمن طلب، ومن لم يطلب. كم كان من السهل على الإمارات أن تتبرع بـ100 مليون دولار لمنظمة الصحة العالمية، كما فعلت دول عديدة، لكن ذلك لم يكن منسجماً مع إحساسها بالأخوة الإنسانية. لقد ذهبت الإمارات مذهباً آخر، بفتح مخزونها من المستلزمات الصحية التي اختفت فجأة من الأسواق، وأصبح سعرها أغلى من سعر الذهب. هذا هو الإيثار بعينه، وفي أحسن تجلياته. ومثل هذا العطاء النوعي اتسم سلوك الإمارات، وأصبحت أبوظبي عاصمة الكرم الطائي العالمي في زمن كورونا. شاركت الإمارات العالم بما لديها من مخزون طبي ثمين، تعض عليه الدول بالنواجذ. وفي أقل من شهرين سجلت رقماً عالمياً قياساً في توزيع أدوية ومعدات ومواد وأجهزة وكمامات وقفازات ومعقمات وألبسة طبية؛ لتأتي في الترتيب العالمي الثاني بعد الصين، التي صدّرت فيروس كورونا للعالم في المقام الأول، شملت مساعدات الإمارات 29 دولة شرقية وغربية، عربية وغير عربية، مسلمة ومسيحية، آسيوية وإفريقية، لاتينية وأوروبية، وبلغ مجموع الإمدادات الطبية 315 طناً، استفاد منها 314 ألفاً من الكوادر الطبية، و30 مليون شخص في إيران وصربيا وكرواتيا وأفغانستان والصين والبرازيل وماليزيا

وأوكرانيا وقبرص وموريتانيا وكولومبيا وبلغاريا والصومال وإثيوبيا والسودان وجنوب إفريقيا وباكستان وأوزبكستان وإندونيسيا وأرمينيا، والقائمة طويلة ولا تتوقف، فقد سجلت الإمارات للتاريخ أنها دولة تتحمل مسؤولية نفسها، بقدر ما تحمل مسؤولية غيرها، وأن الإيثار ثابت من ثوابتها، والتضامن العالمي على رأس أولوياتها.

ضياء عبدالله الكعبي

أثبتت دول الخليج أنها تتوافر على بنية تحتية قوية للنظام الصحي

وأشارت الدكتورة ضياء عبد الله الكعبي، الأكاديميّة والناقدة البحرينية، أستاذة السرديات والنقد الأدبي الحديث، إلى أن جهوداً دولية قد بُذِلت، ولاتزال تُبذل، من أجل الحدّ من انتشار جائحة كورونا، والعودة بالعالم إلى ما قبل كورونا. ولقد أثبتت دول الخليج العربية أنها تتوافر على بنية تحتية قوية للنظام الصحي، والبنية الاقتصادية المقاومة، كما أثبتت قياداتها السياسية المسارات الحكيمة الرشيدة التي اتبعتها في مجال إدارة هذه الأزمة العالميّة التاريخيّة: رأينا هذا الأمر في دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية ومملكة البحرين ودولة الكويت وسلطنة عُمان. لقد كتب الكثيرون عن الإجراءات الصحية والاقتصادية، ولكني في هذا المقام، وبفعل تخصصي الأكاديمي واشتغالاتي المعرفية، سأتحدث عن مقاومة جائحة كورونا، عن طريق «الثقافة». لقد أفرزت جائحة كورونا نوعاً جديداً من الأدب هو «أدب العزلة»، ورسخت أهمية المحتوى الثقافي الافتراضي في العالم كلّه. لقد اختزلنا عقوداً طويلة جداً في أشهر قليلة، تحوَّل فيها العالم إلى قرية افتراضية حقيقية! ملايين البشر هم الآن في «عزلة» حقيقية، ولكنهم يتواصلون فيما بينهم «افتراضياً»! يصدح التينور الإيطالي العالمي آندريا بوتشيلي، وحيداً بصوته الأوبرالي في عيد الفصح، من داخل كاتدرائية ميلانو التاريخيّة، وهو يناشد مليارات من سكان هذا الكوكب، في حفل افتراضي، بالبقاء في «العزل المنزلي». إيطاليا التي كانت السبّاقة عالمياً في جعل الموسيقى «فعل مقاومة» أجمل ضد «الكورونا» التي فتكت بالآلاف في ميلانو وروما وسائر المدن الإيطالية، ومن إيطاليا الجميلة بدأت عدوى انتشار آلاف الفرق الموسيقية في العالم كلّه، وهي تجوب أماكن ضحايا «كورونا»، أو تعزف لهم من داخل المباني المعزولة في أوركسترا جماعية، تنبض بالحياة، جنباً إلى جنب مشهد عبور آلاف الجنائز في عربات الموتى إلى مثواها الأخير «المحرقة»، في الأوبئة التاريخية الكونية الكبرى، لم يكن العالم كلّه مشهداً واحداً متصلاً كما هو الآن، الكلّ مسكون بـ«كورونا»، والكمّ الهائل من أخبارها يتوافر عليه الكلّ أيضاً، فالمعرفة «متحدة»! أصبح العالم وبفعل كورونا أيضاً «تاريخاً شمولياً واحداً»، توارت فيه أخبار الحروب وضحاياها إلى أخبار هذه الجائحة العالمية.

وفي العالم كلّه أصبحت «الثقافات

الافتراضية» لاعباً رئيساً في فترات صعبة من «العزل المنزلي»، قد تبلغ أشهراً طويلة. وسأشير هنا إلى بعض المبادرات الثقافية الافتراضية التي أفرزها «أدب العزلة» بفعل جائحة كورونا. كتبتُ نصاً عن أدب العزلة، شاركتُ فيه ضمن مشروع كتاب جماعي اسمه «حديث العزلة»، وهو كتاب جماعي لكاتبات إماراتيات وخليجيات، سيصدر أواخر هذا الشهر عن المكتب الثقافيّ والإعلاميّ بالشارقة، وتابعتُ باستمتاع الحفل الافتراضيّ لجائزة الشيخ زايد للكتاب في دورتها الرابعة عشرة. واستمتعتُ كذلك بالعرض الأول في اليوتيوب للمسرحية العالمية «شبح الأوبرا» The Phantom of the Opera المستوحاة من رواية عالمية للروائيّ الفرنسيّ غاستون ليرو، وكنتُ قد شاهدتها مرتين في لندن قبل سنوات. كما أتابع باستمرار المنصة الإلكترونيّة لهيئة البحرين للثقافة والآثار، وهي منصة قدَّمت وتقدم مئات العروض الثقافية من مختلف الفنون الأوركسترالية والغنائية والمسرحية وغيرها. وهي العروض التي استضافها «ربيع الثقافة البحرينيّ» على مدار سنوات. وهناك مبادرة اسمها «أدب العزلة» أطلقتها هيئة الأدب والنشر والترجمة، وهي مؤسسة ثقافية حكومية سعودية. وتهدف مبادرة «أدب العزلة» إلى استثمار فترة البقاء في المنزل للوقاية من فيروس كورونا، لتحفيز ممارسة التدوين والكتابة الأدبيّة. وتصدر أهداف هذه المبادرة في إيجاد فرصة للاختلاء بالذات، والتعبير عن المشاعر ومحاورة الأفكار، وتوظيف العزلة في إنتاج مشروع أدبي لتوثيق الأحداث الحالية، وخلق حالة من التفاعل المجتمعيّ في وسائل التواصل الاجتماعيّ، تبثُّ روح الأمل والتفاؤل، واكتشاف مواهب أدبيّة تثري المشهد الأدبيّ. وتشتغل هذه المبادرة على توظيف الفضاءات التفاعلية الإلكترونية من خلال التفاعل مع هاشتاق «أدب العزلة» لكتابة نص أدبي، وإرسال نصوص أدبيّة طويلة عبر المنصة الإلكترونيّة المخصّصة لذلك.

وفي هذا السياق، أشير إلى مبادرة كلية الآداب بجامعة الكويت بإطلاق مؤتمرها الدوليّ الإلكترونيّ الأول لقسم التاريخ والآثار (20-21 إبريل 2020)، وجعله باسم «الأوبئة عبر التاريخ»، هي التفاتة ذكية جداً انتبهت إلى أمرين: استثمار جائحة

«كورونا» العالميّة في درس التاريخ، من خلال بيان المسارات التاريخيّة المفصليّة الكبرى للأوبئة الكونيّة، والأمر الآخر الانتباه إلى ضرورة ديمومة العمل الأكاديميّ البحثيّ، وعدم توقفه باستثمار الفضاءات الإلكترونية التفاعلية.

عادل بن سعد الذكرالله

دول مجلس التعاون الخليجي تعاملت مع كورونا بوسائل احترازية متقدمة

وأضاف الإعلامي عادل بن سعد الذكرالله مدير هيئة الصحفيين السعوديين بالأحساء بالمملكة العربية السعودية تعاملت دول مجلس التعاون الخليجي مع جائحة كورونا بوسائل احترازية متقدمة منذ بداية تفشي الفيروس حيث تابعته فور اعلان الصين ومنظمة الصحة العالمية عن ذلك واتخذت أساليب وقائية بهدف تخفيف وتقليل قدر الإمكان من التفشي و جعلت نصب أعينها (الانسان) أولًا سواء المواطن أو المقيم النظامي وغير النظامي دون ملاحقة الاخير قانونيًا وسعت الى دعم الجهاز الصحي بكل ما يلزمه و شجعت مراكز البحث الصحي والطبي وتوسيع التواصل مع مراكز البحوث العلمية ناهيك عن إطلاق عدد من الحزم الداعمة للاقتصاد حيث اضطلعت كل حكومة بالحفاظ على القطاع الخاص وخاصة المنشآت الصغيرة والمتوسطة وتحملت الرواتب رغم تعطيل الموظفين الحكوميين عن الدوام وعطلت المدارس والقطاعات الحكومية لتقليل التجمعات البشرية وأوقفت ودعت الى الحجر المنزلي وعدم الخروج الا للضرورة وأظهر المواطنون والوافدون في دول الخليج بالبقاء في منازلهم وجهزت المحاجر الصحية لمن يفد من الخارج لمدة 14 يوم وتكفلت بأبنائها العالقين في الخارج وسيرت لهم رحلات اعادة الى مواطنهم و راحت تخفف على الدول العربية الصديقة وتدعم وزارات الصحة بما يحتاجونها للتخفيف على الانسان هناك وأوقفت صلاة الجماعة في المساجد وكذلك المظاهر الاجتماعية كحفلات الزفاف او مجالس العزاء والمناشط السياحية بهدف التباعد

الجسدي وبثت الرسائل التوعوية التثقيفية الوقائية ومنها غسل الأيدي باستمرار ولبس الكمام في الخارج وترك مسافة مع الاخر بحوالي متر ونصف المتر وثمنت الحكومات الخليجية ومواطنيها الجهود الجبارة للجيش الأبيض الممارسين الصحيين وكذلك القطاعات الأمنية والبلدية والتجارية والزراعية والنقل والاعلام و الاتصالات وغيرها الذين يواصلون العمل ليلًا ونهارًا من اجل السلامة والعيش الهانئ للإنسان.

الانسان هنا يثمن لقادتهم وحكوماتهم تضحياتهم بالاقتصاد من اجل صحة المواطن والوافد ويسألون الله العلي القدير أن يجازي قادة دول المجلس والحكومات وكافة العاملين خير الجزاء وأن يرفع الوباء والآباء عن الانسان في كل مكان وأن يمكن الباحثين من ايجاد اللقاح والعلاج ويشيدون بابتكار الباحثين بدولة الإمارات العربية المتحدة براءة اختراع لـ«علاج مبتكر وواعد» لفيروس كورونا باستخدام الخلايا الجذعية. وقام بتطوير هذا العلاج، فريق من الأطباء والباحثين في مركز أبوظبي للخلايا الجذعية ويتضمن استخراج الخلايا الجذعية من دم المريض وإعادة إدخالها بعد تنشيطها، ومنحت براءة الاختراع لـ«الطريقة المبتكرة التي يتم فيها جمع الخلايا الجذعية»، حيث وأوضحت وكالة أنباء الإمارات أنه تم تجربة العلاج على 73 حالة شفيت من المرض، وظهرت نتيجة الفحص سلبية بعد «إدخال العلاج إلى الرئتين من خلال استنشاقه بواسطة رذاذ ناعم»، ومن المفترض أن يعمل تأثيره العلاجي عن طريق تجديد خلايا الرئة وتعديل استجابتها المناعية لمنعها من المبالغة في رد الفعل على عدوى فيروس (كوفيد 19).

ودون شك مثل هذا المبتكر اسعد العالم بأسره الذي يتكامل مع شعوب العالم بأسره من اجل إسعاد البشرية بايجاد اللقاح والعلاج.

خالد الظنحاني

بُذِلت جهود دولية في دول العالم للحدّ من انتشار جائحة كورونا

خالد الظنحاني، رئيس جمعية الفجيرة الاجتماعية الثقافية، أوضح أن جهود العالم في مكافحة فيروس كورونا كبيرة جداً، ولكن متباينة بين دولة وأخرى، فهناك دول عملت إجراءات استباقية للسيطرة على هذا

الوباء، ومنها دولة الإمارات العربية المتحدة ودول الخليج العربي، كما أن دولة الإمارات لديها مبادرات مشهود لها على مستوى العالم، كما أن منظمة الصحة العالمية أشادت بدور الإمارات ومبادراتها، ليس على المستوى المحلي فقط، ولكن على المستوى العالمي، كما أن الإمارات قدمت مبادرات كبيرة على المستوى الإنساني للمقيمين والزائرين، وتعتبر الإمارات ثاني أكبر دولة تجري فحوص كورونا للموجودين على أرضها، من مواطنين ومقيمين؛ لذلك نستطيع أن نؤكد أن حكومة الإمارات العربية المتحدة نجحت في السيطرة على كورونا، كما نجحت سابقاً في السيطرة على العديد من الأمراض المعدية التقليدية، وكان لها دور عالمي في هذا المجال.

محمد يوسف

جهود الإمارات لم تقف عند الداخل.. بل امتدت للخارج

وقال الفنان التشكيلي الدكتور محمد يوسف، إن الجهود العالمية المبذولة في محاربة كورونا كبيرة، كما أن الأزمة اختصرت الزمن، وأثبتت أن الإنسان هو البنية الأولى التي يجب الاهتمام بها، والحمد لله أننا في دولة الإمارات استطعنا من خلال البرامج التي طرحتها الحكومة، مثل برنامج التعقيم الوطني، الحد من انتشار فيروس كورونا ، كما أن جهود الإمارات في مكافحة فيروس كورونا لم تقف عند الداخل، فامتدت إلى الخارج؛ لتشمل مساعدات وتجهيزات طبية، ومن ثم إجلاء رعايا دول شقيقة وصديقة من ووهان الصينية بؤرة الفيروس، وفي نهج إنساني أبدت الإمارات استعدادها الكامل لتقديم كل الدعم لمواجهة أزمة انتشار «فيروس كورونا المستجد»، وترجمته على أرض الواقع، من خلال نقل طائرة إماراتية لإمدادات ومعدات طبية مقدمة من منظمة الصحة العالمية لإيران، في إطار جهودها لاحتواء الفيروس. ما يؤكد حرص الإمارات على التعاون مع المجتمع الدولي لمواجهة التحديات والمخاطر، ويؤكد أهمية دورها الراسخ في تعزيز المساعي العالمية للأهداف النبيلة التي يتم العمل على تحقيقها، وهذا ليس بجديد على دولة مثل الإمارات.

تاريخ الأوبئة والأمراض في العالم

«كورونا»، ذلك الفيروس الذي ضرب العالم فجأة، وأودى بحياة الكثيرين، مسبباً الرعب والفزع في أرجاء العالم كافة. وقد أخبرنا أجدادنا الكثير بشأن الأمراض والأوبئة التي تفشت في حقب تاريخية سابقة، ولم نعاصرها، إلا أن الكتّاب والروائيين أصروا على عدم تجاهل هذه الأمراض، وأودعوها في كلمات وعبارات، سطّورها في صفحات لكتب، أوضحت لنا لمحة مما عاناه أسلافنا من بلاء ومحن.

الأوبئة والطاعون

أوضح الكتاب لمؤلفه ريتشارد ووكر، أن أي تهديد وبائي يشكل حالة من الرعب لدى الناس الذين يعيشون في يومنا هذا، لكن لنتخيل مشاعر أولئك الذين عاشوا في حقب ماضية، ولم يتوافر لديهم فهم حول الأمراض وكيفية انتشارها، لقد ظلت جائحات الطاعون والأوبئة طيلة آلاف مؤلّفة من السنين تُلحق الخراب والدمار بالبشر، وتقتل الملايين منهم، واعتبر الناس، الذين أرعبهم المجهول، هذه الأمراض الفتاكة بمثابة عقاب أنزلته الآلهة على البشر، فالطاعون تعبير استخدم غالباً لوصف أي مرض

مهلك ومعدٍ، لكنه أشار بالتحديد إلى الطاعون الدبلي، وهو مرض دمّر أوروبا في القرن الرابع عشر، كما ظهرت أمراض مرعبة وفتاكة غالباً - عرفت بالأوبئة - أصابت ببلاياها العالم القروَسطي، في هذه الحقبة، بدأ المستكشفون والتجّار بالسفر على نطاق واسع، فنشروا الأمراض معهم، لتظهر أوبئة أو جائحات أصابت مناطق واسعة من العالم، حيث إنه بين عامي 1347-1351م، انتشر في أوروبا وباء فتاك كالنار في الهشيم، عرف باسم «الموت الأسود»، أما اسمه فقد اشتق من التورمات السوداء، التي ظهرت على العديد من ضحاياه، ومعظم هؤلاء هلكوا بعد أن عانوا آلاماً مبرحة، كان الموت الأسود أسوأ وباء عرفه البشر، حيث فتك بأكثر من 25 مليوناً من

طاعون «الدبلي» دمّر أوروبا في القرن الرابع عشر

الأوروبيين؛ أي أكثر من ثلث سكان أوروبا - وغيّر حياة أولئك الذين نجوا من براثنه.

ثم انتقل الكاتب إلى مرض القرون الوسطى، حيث أوضح أن الطاعون كان واحداً من أوبئة أو أمراض عديدة، أصابت بلاياها حياة الناس في العصور الوسطى، واعتبرت هذه الأوبئة التي بقيت أسبابها مجهولة عقاباً على الشر والإثم، أو حملت مسؤولياتها على حركات الكواكب غير المواتية، وصحيح أن معظمها مثل «داء القديس أنطوني» (المعروف حالياً بالتسمم بالأرغوت) والجذام وشر الملك، أصبحت اليوم مفهومة ومعروفة وقابلة للعلاج، إلا أن غيرها مثل مرض التعرق، مازال سراً غامضاً.

وأشار الكاتب إلى أنه بين عامي 1493-1494م، تفشّى مرض فتاك جديد دعي بـ«الوقسة الكبرى» في مدينة نابلوي في جنوب إيطاليا، انتشر المرض - الذي عرف فيما بعد باسم السفلس (أو الزهري) - بسرعة كبيرة، منتقلاً من شخص لآخر عبر الاتصال الجنسي.

ثم انتقل الكاتب إلى فترة جديدة، حيث أكد أنه حين وصل الإسبان وغيرهم من الأوروبيين إلى أمريكا الوسطى والجنوبية في القرن الخامس عشر، جلبوا معهم «سلاحاً» سرياً فتاكاً، فهؤلاء الفاتحون نشروا دون

قصـد «الجـدري» وغـيره مـن الأمـراض المعديـة بـين شـعب الأزتيك في المكسـيك، والأنـكا في البـيرو، ولم يتعـرض أفـراد هذيـن الشـعبين مـن قبـل للطاعـون والأوبئـة التـي اجتاحـت أوروبـا، ولذلـك افتقـدوا المناعـة الطبيعيـة ضدهـا، فهلـك الملايـين منهـم، وبحلـول القـرن السـادس عشـر فنـوا عـن بكـرة أبيهـم، واختفـت الإمبراطوريتـان إلى الأبـد، وبعـد قـرن أو نحـوه، لقيـت شـعوب وقبائـل أمريـكا المصـير نفسـه.

ثـم أوضـح الكاتـب أن الطاعـون اختفـى، وعـاود الظهـور بعـد المـوت الأسـود، خصوصاً في لنـدن عـام 1665، ففـي فصل الصيـف الحـار والرطـب مـن تلـك السـنة، هلـك عـشرات الألـوف بطريقـة مؤلمـة، وانتـشر المـرض أيضـاً خـارج لنـدن، وحـين اجتـاح قريـة صغـيرة في مقاطعـة ديـربي شـير تدعـى «أيـام»، قـرر سـكانها أن يضحـوا بأنفسـهم، ويبقـوا في عزلـة لمنـع انتشـار الوبـاء إلى مناطـق أخـرى.

الأوبئة والتاريخ.. المرض والقوة والإمبريالية

في هـذا الكتـاب يأخـذك شـالدون واتـس - مؤلـف الكتـاب - عـبر 646 صفحـة في رحلـة إلى المـاضي، إلى العصور الوسـطى في أوروبـا، حيـث انتـشر الجـذام والجـدري، لتنتقـل بعدهـا إلى آسـيا حيـث كان الطاعـون، ومنهـا إلى الهنـد وبريطانيـا، حيـث توطنـت الكولـيرا، ثـم تعـود إلى إفريقيـا حيـث الحمـى الصفـراء والملاريـا.

ليـس هـذا فقـط، فالكتـاب لم يقتـصر عـلى شرح تاريـخ تلك الأوبئة أو اسـتجابة البـشر لهـا، بـل سـلط الضـوء عـلى إحدى النقـاط المهمـة، وهـي علاقـة الإمبرياليـة والحركـة الاسـتعمارية بانتشـار الأمـراض الوبائيـة في مناطـق جديـدة، لم تكـن موجـودة فيهـا مـن قبـل في فصـل تلـو الآخـر، يوضـح الكاتـب كيفيـة توظيـف الغـرب لمفهـوم مقاومـة الأمـراض الوبائيـة كأداة لاختـراق الـدول في كل مـن إفريقيـا وآسـيا والأمريكتـين.

كان الطـب آليـة لنقـل الأفـكار الإمبرياليـة، وكانـت المؤسسـات الطبيـة التـي أنشـأها الغـرب بغـرض مقاومـة الأوبئـة وسـيلة مـن وسـائل الاسـتعمار، وعـبرت عـن علاقـات القـوة بـين الحاكمـين والمحكومين.

تطـرق الكتـاب إلى طـرق انتشـار الأوبئـة قديمـاً مـن خـلال التجـار والعـمال والمهاجريـن والحجـاج، والجنـود الذيـن أصيبـوا بالأمـراض ونقلوهـا مـن مـكان لآخـر، كـما هـو الحـال في الطاعـون الـذي انتقـل مـن خـلال التجـار إلى الموانـئ الإيطاليـة، ومنهـا إلى إنجلـترا ثـم إلى جنـوب البحـر المتوسـط، حيـث هاجـم مـصر مـرات عديـدة حتـى القـرن الـ19، ففتـك بعـدد كبـير مـن السـكان. وكذلـك الكولـيرا، التـي انتقلـت مـن الهنـد إلى إنجلـترا مـن خـلال الجنـود البريطانيـين العاملـين في شركـة الهنـد الشرقيـة، وفي الطريـق بـين البلديـن انتقـل إلى مـصر، حيـث كانـت ممـراً ومحطـة عـلى طـول الطريـق بـين البلديـن.

إن كانـت هـذه الأوبئـة انتقلـت بـين أرجـاء العـالم دون قصـد أو عمـد، فهنـاك عـدد آخـر تـم نـشره عمـداً مـن خـلال الاسـتعمار. إذ كان الاسـتعمار سبباً في نقل

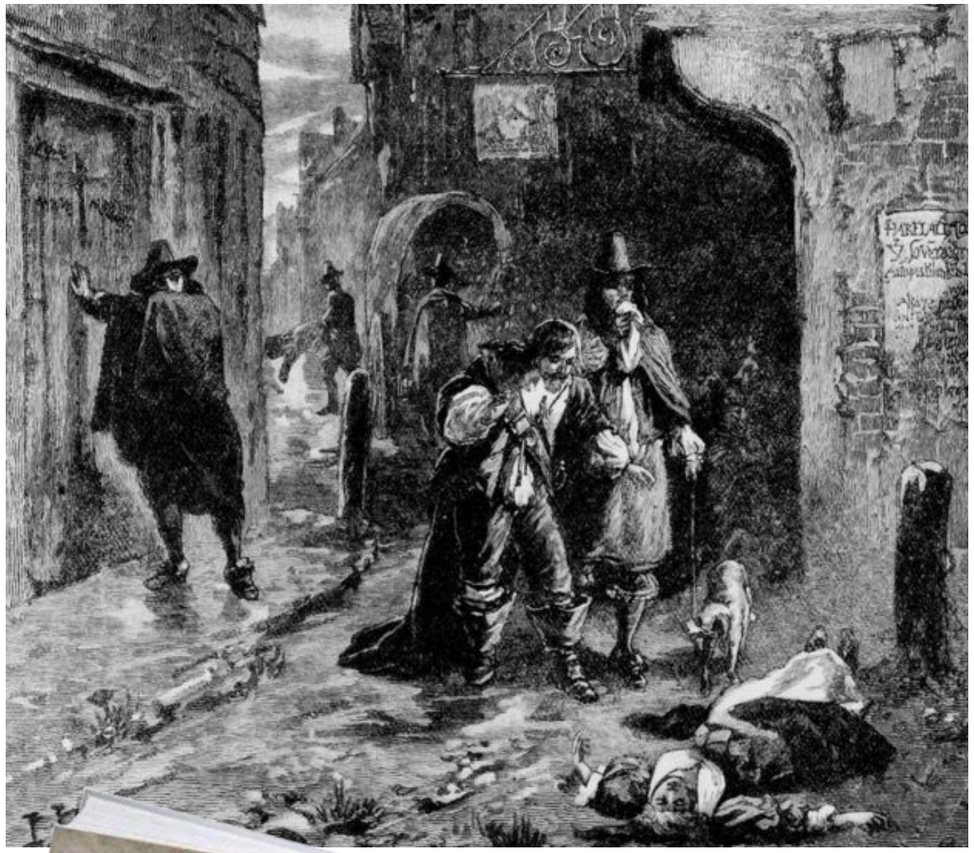

أوبئة إلى الأمريكتين لم تكن تعرفهم من قبل، بعد وصول كولومبس إلى الأمريكتين، تدفق الآلاف من شعوب شبه جزيرة إيبيريا الحاملين لفيروس الجدري، إلى حيث أمريكا الوسطى والمكسيك، ولم تكن لدى سكان هذه المنطقة مناعة ضد الوباء الجديد، فبادت شعوب هذه الأراضي بأكملها، حيث توفي نحو 90% من سكان الأمريكتين، وهاجر الآخرون، ولم يتبق سوى 7% من السكان الأصليين.

«الموت الأسود» فتك بأكثر من 25 مليوناً من الأوروبيين

الموت الأسود

يقدم جوزيف بيرن صورة للحياة اليومية أثناء اجتياح الطاعون، أو كما يطلق عليه «الموت الأسود» للعالم، حيث استمر لما يزيد على ثلاثة قرون في العالمين الإسلامي والمسيحي، ولم ينحسر عن أوروبا إلا في القرن الـ17، بينما استمر في شمال إفريقيا والشرق الأدنى حتى منتصف القرن الـ19.

كانت الحياة في ذلك الوقت مشابهة لما عليه الوضع اليوم، لكن أكثر قسوة. كانت حياة جامدة، تخلى فيها الأفراد عن كل شيء، عزلوا أنفسهم في بيوتهم بانتظار الوباء، حلت الأنظمة الغذائية الخاصة والعقاقير محل موائد الطعام المعتادة، أما خارج البيوت ففُرضت القيود على السفر، أُغلقت المدارس والكنائس، هُجرت الدكاكين، توقف البناء، وخلت الشوارع من الحشود، والمسارح من الجمهور.

«الكوليرا» انتقل من الهند إلى إنجلترا من خلال الجنود البريطانيين

أصبح الوضع أشبه بالعطلة المرعبة، إذ استبدلت أصوات الباعة المتجولين في الشوارع بالأصوات التي تنادي «أخرجوا الموتى»، وكما ترى اليوم مشاهد العربات المحملة بالموتى وضحايا كورونا، كان ذلك هو الحال خلال تلك الفترة، فعلى طول الشوارع، انتشرت العربات المحملة بالموتى بدلاً من العربات المحملة بالسلع والمواد الغذائية الطازجة. ولم تعد النيران توقد للطهي أو التدفئة، وإنما لإحراق أمتعة الضحايا.

في المقابل من هذه الأهوال، عمد الأفراد إلى التكيف مع الوضع، حيث كان الوباء يتكرّر مرة كل عقد من الزمن تقريباً، ويظهر في الربيع، ثم يشتد في الصيف، ليبدأ في الانحسار مع قدوم الخريف والشتاء، وفي كل مرة يفرض على السكان حصاراً يصل لسنوات عدة، ومن ثم لم يكن هناك مفر من التكيف مع الأوضاع الاستثنائية. من هنا عدّل الناس اهتماماتهم وعاداتهم، وحافظت الكنائس والمساجد والمدارس والمستشفيات بالطبع على قدر من حيويتها.

«الفيض».. أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر

يعدّ «الإنذار المبكر»، والكتاب بالفعل إنذار أطلقه ديفيد كوامن مبكراً مما نعانيه اليوم، وبأسلوب رشيق يبدو وكأنك تقرأ رواية مثيرة، يتحدث

قد تكون هذه الحيوانات: القرود في إفريقيا، أو الجرذان والقوارض في الصين، أو الخفافيش، وما سيسهل انتشاره سرعة الانتقال والسفر خاصة الطيران.

المثير في الكتاب تحذيره من أن الوباء الجديد قد ينبثق عن فيروس معروف - مثل كورونا - ينشط حين يجد الظروف مناسبة لانتشاره من جديد. ليس هذا فقط، فقد استفاض الكتاب في شرح الآليات والإجراءات التي يمكن اتباعها في مواجهة الفيروس حال تكرار ظهوره، وهو ما حدث وما نعانيه اليوم بالفعل.

كما تناول الكاتب بالتفصيل الأوبئة المختلفة، وظروف نشأتها وتداعياتها، ولعل أهم ما أكد عليه أن هذه الأوبئة ليست مجرد أمراض تصيبنا مصادفة، لكنها عوامل معينة تسببها، من بينها أفعال البشر أنفسهم.

أسلحة وجراثيم

وفي كتابه «أسلحة وجراثيم وفولاذ.. مصير المجتمعات البشرية»، الحائز جائزة بوليتزر لفئة الكتب غير الخيالية العامة، يحلل المؤلف جارد دايموند أسباب نجاة بلدان أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، في مقابل استعباد وهلاك شعوب أخرى، بعد أن تم استعمارها مثل شعوب صحراء إفريقيا الجنوبية وسكان أميركا وأستراليا الأصليين وغيرهم.

الاستعمار تسبّب في نقل أوبئة إلى الأمريكتين

ويعتبر المؤلف الذي يعمل أستاذاً للجغرافيا بجامعة كاليفورنيا، أن الحضارة الأوراسية (السيادة الروسية) لم تقم نتيجة للإبداع، بل نتيجة لفرصة وحاجة؛ أي أنها لم تنشأ لفروقات جينية، ولا بسبب الذكاء والتفوق، بل لفروق بيئية كنتاج سلسلة من التطورات البيئية.

كوامن عن الجراثيم التي تنقل عدواها من الحيوانات إلى الإنسان، وتصيبه بالأمراض المعدية.

وضّح الكتاب أن هذه الأمراض قد تنبثق كوباء أو جائحة تجتاح مناطق واسعة من العالم، مثل طاعون العصور الوسطى والإنفلونزا الإسبانية والإيدز وغيرها.

وفي السياق ذاته تناول مشكلة الإيدز بالتفصيل، فوضح أن العلماء والمختصين سبق أن توقعوا أنه إذا استمرت الأحوال الصحية والبيئية كما هي عليها من تخلّف ومضار في الكثير من أنحاء العالم، فهناك احتمال لوقوع جائحة جديدة، وأن الفيروسات المسببة لهذه الجائحة ستصل إلى البشر عن طريق الحيوانات.

«الجدري» مدمّر إمبرطوريات الأزتيك والأنكا

ملف العدد

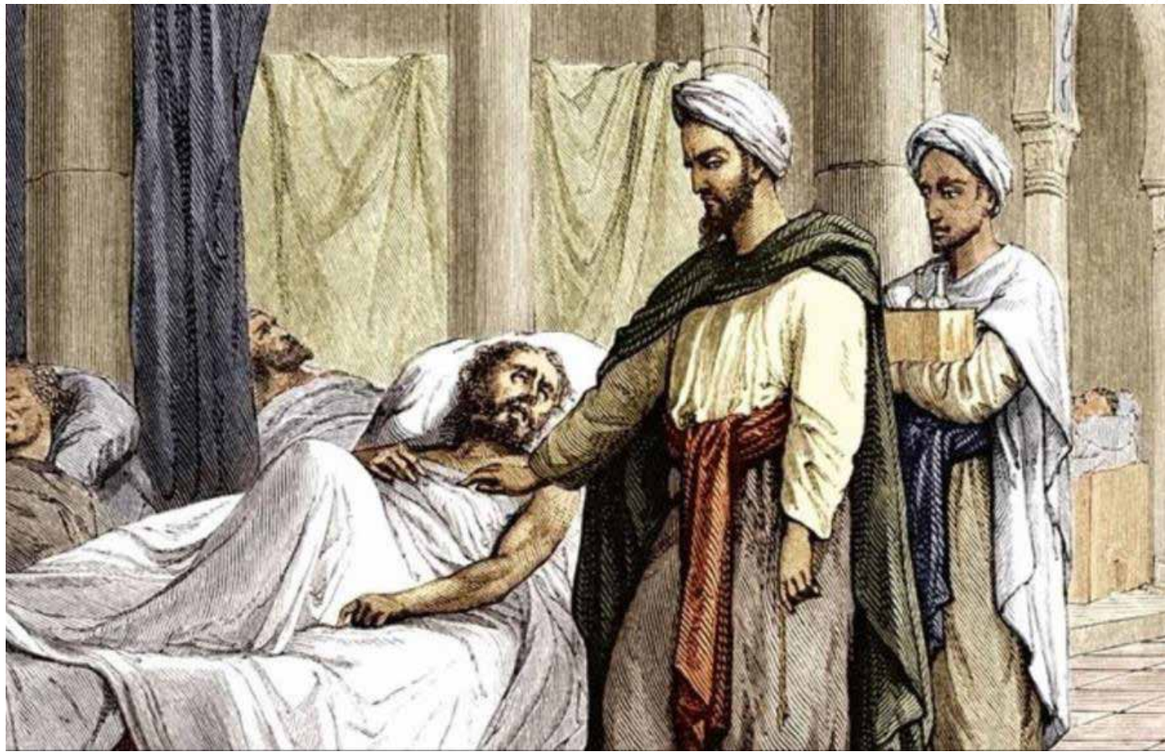

الطواعين والأوبئة في التاريخ الإسلامي

شكلَّت الأمراض والأوبئة تهديدًا كبيرًا للحضارات الإسلامية في العصور المختلفة، تاركة وراءها آثارًا سلبية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والعمران، بل حصدت أرواح الناس حصدًا، تاركةً وراءها ما يمكن وصفه بكوارث ديموغرافية كبرى تركت بدورها آثارًا سلبية بالغة القسوة على الصعيد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والعمراني، ومن ثم السياسي في نهاية المطاف، وتعاقبت الأزمات والابتلاءات والمحن التي أصابت البشرية عبر تاريخها الطويل، ونزلت بالناس صنوف شتى من الابتلاء؛ كالطواعين والمجاعات والفيضانات والزلازل والجفاف وغير ذلك، وبالطبع، فقد نال المسلمين من ذلك البلاء والجوائح الكثير، وسجل تاريخهم أحداثها ووقائعها وآثارها. ولعل أكثرها فتكاً كان مرض «الطاعون» الذي انتشر أكثر من مرة في مصر والشام والمغرب والعراق والأندلس وقتل ألوفاً من سكانها،

حدثت عدة أوبئة وأمراض جماعية عبر التاريخ الإسلامي، وفي مختلف دوله وأمصاره وأصقاعه، إلا أن أبرزها وأكثرها شهرةً وتأثيراً هي(طاعون عمواس 18 هـ/ 693م، طاعون الجارف 69هـ/ 688م، طاعون الفتيات أو الأشراف 87 هـ/ 705م- طاعون مسلم بن قتيبة 131 هـ/ 748م) .

تعريفات الطواعين والأوبئة

تعددت تعريفات الطاعون: فيقول الجوهري الطاعون: وزنه فاعول من الطعن، عدلوا به عن أصله، ووضعوه دالًا على الموت العام كالوباء، ويقال: طعن فهو مطعون وطعين: إذا أصابه الطاعون، وكذا إذا أصابه الطعن بالرمح.

وفسر الأطباء المعاصرون الطاعون بأنه ميكروب ينتقل بواسطة البراغيث والحشرات إلى الفئران المنزلية ومنها إلى الإنسان كما قد ينتقل الميكروب بواسطة جرذان البواخر التي تعيش في مخازن السفن.

وفي التعريفات الطبية المعاصرة أيضًا: جاء في الموسوعة البريطانية أن «الطاعون مصطلح كان يطلق قديمًا على أي مرض واسع الانتشار، مسببًا الموت الجماعي، لكنه الآن محصور في حُمّى معدية من نوع خاص تسببه البكتيريا العصوية التي ينقلها برغوث الفئران».

ومن حيث الفرق في الاستخدام الدلالي بين الطاعون والوباء: يقول أبو الوليد الباجي نقلًا عن ابن حجر:» الطاعون مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحدًا بخلاف بقية الأوقات فتكون الأمراض مختلفة».

وقال إبراهيم الحربي: الوباء هو الطاعون والمرض العام.

وقال ابن الأثير في شرح قول النبي صلى الله عليه وسلم « فناءُ أُمَّتي بالطَّعنِ والطاعونِ « الطعن: القتل بالرمح، والطاعون المرض العام، والوباء الذي يفسد له الهواء، فتفسد به الأمزجة والأبدان.

وقال القاضي: أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض، فسُمّيت طاعونًا لشبهها بالهلاك بذلك، وإلا فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونًا.

الطواعين والأوبئة في التاريخ الإسلامي

احتل الطاعون مكانة مرموقة في كتب التراث الإسلامي، حيث حفلت بالحديث عنه مؤلفات الحديث والفقه والفلسفة، فضلًا عن مجال الاختصاص وهو الطب، ولو تصفحنا كتب السنة لوجدنا بعض المحدثين كالبخاري ومسلم والترمذي وغيرهما قد أفردوا في كتبهم أبوابًا تضم ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث في شأن الطاعون ومنها ما جاء في البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:» الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»، ومنها ما جاء في البخاري أيضًا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «سَأَلْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فأخْبَرَنِي أنَّه عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ علَى مَن يَشَاءُ، وأنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ليسَ مِن أحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أنَّه لا يُصِيبُهُ إلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ له، إلَّا كانَ له مِثْلُ أجْرِ شَهِيدٍ».

أما من حيث الطواعين التي ضربت بلاد الأمة الإسلامية فهي كثيرة أشهرها :-

طاعون عمواس

طاعون عِمْواس هو طاعون وقع في ولاية بلاد الشام الإسلامية التابعة للخلافة الراشدة في أيام خلافة عمر بن الخطاب سنة 18 هـ/639م بعد فتح بيت المقدس، وسُميت هذه السنة بعام الرمادة لما حدث بها من المجاعة في المدينة المنورة أيضًا، ويُعتبر هذا الطاعون أحد امتددات طاعون جستنيان، وهو أول وباء يظهر في الدولة الإسلامية، بدأ الطاعون في عمواس، وهي قرب بيت المقدس، فسُمي «طاعون عمواس»، ثم انتشر في بلاد الشام، وكان عمر بن الخطاب يهم بدخول الشام وقتها، فنصحه عبد الرحمن بن عوف بالحديث النبوي: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فرارًا منه»، فعاد عمر وصحبه إلى المدينة المنورة، حاول عمر بن الخطاب إخراج أبا عبيدة بن الجراح من الشام حتى لا يُصاب بالطاعون فطلبه إليه، لكن أبا عُبيدة أدرك مراده واعتذر عن الحضور حتى يبقى مع جنده، فبكى عمر، واستمر هذا الطاعون شهرًا، مما أدى إلى وفاة خمسة وعشرين ألفًا من المسلمين وقيل ثلاثين ألفًا، بينهم جماعة من كبار الصحابة أبرزهم: أبو عبيدة بن الجراح وقد دُفن في «عمتا» وهي قرية بغور بيسان، ومعاذ بن جبل ومعه ابنه عبد الرحمن، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، وأبو جندل بن سهيل، وقيل أن الطاعون أصاب البصرة أيضًا فمات بشر كثير، وبعد انحسار طاعون عمواس، خرج عمر

بـن الخطـاب مـن المدينـة المنـورة متجهًـا نحـو بـلاد الشـام عـن طريـق أيلـة. فلـمّا وصلهـا قسّـم الأرزاق وسـمّى الشـواتي والصوائـف وسـدّ فـروج الشـام وثغورهـا، واسـتعمل عبـد اللـه بـن قيـس الحـارثي عـلى السـواحل ومعاويـة بـن أبي سـفيان عـلى جنـد دمشـق وخراجها. ثـم قسـم مواريـث الذيـن ماتـوا، بعـد أن حـار أمـراء الجنـد فيـما لديهـم مـن المواريـث بسـبب كـثرة المـوتى. وطابـت قلـوب المسـلمين بقدومـه بعـد أن كان العـدو قـد طمـع فيهـم أثنـاء الطاعـون.

الطاعون الجارف

حـدث الطاعـون الجـارف في البصرة سـنة 69هـ في زمـن عبدالله بـن الزبـير (رضي اللـه عنـه)، وسـمي بالجـارف لكـثرة مـن مـات فيـه، فقـد اجـترف المـوت فيـه النـاس اجترافـاً كالسـيل، واسـتمر ثلاثـة أيـام فقـط

طاعون الفتيات

وفي عـام 87هـ وقـع طاعـون في العـراق وبـلاد الشـام، سـمي بطاعـون الفتيـات لأنـه وقـع بالنسـاء والعـذارى أولاً، فوقـع بالنسـاء قبـل الرجـال، بينـما سـماه البعـض بطاعـون الأشراف لكـثرة مـا تـوفي فيـه مـن أشراف القـوم وأكابرهـم .

طاعون مسلم بن قتيبة

سـمي هـذا الطاعـون باسـم أول مـن مـات في هـذا الوبـاء وهـو مسـلم بـن قتيبـة ، حيـث وقـع هـذا الوبـاء في البـصرة جنـوب العـراق و اسـتمر لمـدة ثلاثـة أشـهر تـوفي فيـه عـدد كبـير مـن النـاس وتذكـر المصـادر أن في أحـد الأيـام تـوفي ألـف شـخص ، ووفقـا لدراسـة بعنـوان «وبـاء الطاعـون فى الإسـلام وإصابـة المشـهورين بـه حتـى نهايـة العـصر الأمـوى» نـشرت بمجلـة كربـلاء العالميـة (المجلـد الثامـن- العـدد الأول عـام 2010)، وقـع هـذا الطاعـون سـنة 131 هـ فى شـهرى شـعبان ورمضـان، وأقلـع فى شـهر شـوال، وكان يحـصى فى سـكة المربـد فى البـصرة كل يـوم ألـف جنـازة، وأشـهر مـن مـات فيـه، أيـوب بـن أبى تميمـة كيسـان الأمـام البـصرى، وكان مـن المـوالى سـمع عمـرو بـن سـلمه الجرمـى وأبـا العاليـة الرياحـى وسـعيد بـن جبـير وأبـا قلابـة وابـن سـيرين قـال عنـه الحسـن البـصرى «أيـوب سـيد أهـل البـصرة»، وبحسـب كتـاب «الطاعـون فى العـصر الأمـوى» تأليـف أحمـد العـدوى، قـام هـذا الطاعـون بـدور كبـير في نجـاح العباسـيين في إزالـة دولـة بنـي أميـة، فـكان طاعـون مُسـلم بـن قتيبـة في عـام 131 هـ/ 748 م بمنزلـة فصـل الختـام بالنسـبة إلى الخلافـة الامويـة؛ إذ أسـفر

عـن خسـائر ماديـة وبشريـة هائلـة، أصابـت قلـب الدولـة في عهـد مـروان بـن محمـد بصـورة خاصـة»، يضيـف أن الطاعـون حسـم أمـر سـقوط الأمويـين، «إذ أحسـن الثـوار العباسـيون اختيـار الوقـت الملائـم لإعـلان ثورتهـم بـين طاعونـين كبيريـن أصابـا الشـام والعـراق بـين عامـي 127 هـ/ 743 م و131 هـ/ 748 م، هـما طاعـون غـراب وطاعـون مسـلم بـن قتيبـة. أدى هـذان الطاعونـان دوراً في نجـاح العباسـيين في إزالـة دولـة بنـي أميـة، فـكان طاعـون مُسـلم بـن قتيبـة في عـام 131 هـ/ 748 م بمنزلـة فصـل الختـام بالنسـبة إلى الخلافـة الأمويـة؛ إذ أسـفر عـن خسـائر ماديـة وبشريـة هائلـة، أصابـت قلـب الدولـة في عهـد مـروان بـن محمـد بصـورة خاصـة».

الطاعون الأعظم

تعرضـت بـلاد الشـام في عـصر دولـة المماليـك في عـام 748هـ/ 1347م، لطاعـون اجتـاح مناطـق بـلاد الشـام ومـصر وأوروبـا ولشـدة فتكـه وسـعة انتشـاره أطلـق عليـه اسـم الفنـاء الكبـير أو «الطاعـون العظيـم»، وأفنـى سـكان مـدن دمشـق وحلـب والقـدس والـرك وبيـت المقـدس ونابلـس وجنـين والرملـة وعربـان البـوادى، واسـتمرت الطواعـين تفتـك فى منطقـة بـلاد الشـام ومـصر خـلال فـترة المماليـك الجراكسـة منـذ قيامهـا حتـى نهايتهـا بثلاثـة سـنوات، وذلـك بحسـب دراسـة بعنـوان «الأوبئـة (الطواعـين) وأثارهـا فى بـلاد الشـام فى عـصر المماليـك الجراكسـة» لمبـارك محمـد الطراونـة.

وبحسـب كتـاب «نهـر الذهـب في تاريـخ حلـب - ج3 - كامـل بـن حسـين الحلبـي الغـزي» فيهـا كان الفنـاء العظيـم والطاعون العميـم الـذي جـاز البـلاد والأمصـار ولم يسـمع بـه، وأخـلى الديـار والبيـوت وأوقـع النـاس في علـة السـكوت، وكان إذا طعن بـه إنسـان لا يعيـش أكـثر مـن سـاعة رمليـة، وإذا عايـن ذلـك ودع أصحابـه، وأغلـق حانوتـه وحـضر قـبره ومـضى إلى بيتـه ومـات، وقـد بلـغ عـدد المـوتى فى حلـب في اليـوم الواحـد نحـو 500، وبدمشـق إلى أكـثر مـن ألـف، ومـات بالديـار المصريـة في يـوم واحـد نحـو عشريـن ألفـا.

كـما شـهدت مـصر فى فـترة زمنيـة تسـبق وبـاء حلـب بسـنوات، وبـاء يحمـل نفـس الاسـم، وبحسـب الدكتـور إبراهيم الدسـوقى في دراسـته الوبـاء «المـوت الأسـود» وبـاء الطاعـون وآثـاره الجغرافيـة عـلى مـصر: «إن الوبـاء أطلقـت عليـه المصـادر بالفنـاء الكبـير أو الفنـاء العظيـم وانتـشر بكافـة مناحـى الكـرة الأرضيـة، واسـتمر بمـصر 4 أشـهر حتـى قتـل الآلاف النـاس، وحـدث ذلـك في أعـوام 1347-1348م وقـد عـم القاهـرة والدلتـا والصعيـد، وانتقـل الوبـاء خـلال طـرق التجـارة العالميـة آنـذاك، حيـث حـط رحالـه فى الإسـكندرية مـن خـلال مراكـب التجـار.

الطاعون في المغرب العربي

أمـا المغـرب العربي،فمـر بتاريخـه في كثـير مـن الأوبئـة والمجاعات والجفـاف في عـصر المرابطـين والموحديـن والمرنيـين وحتـى الفـترة الحديـث، ولعـل مـن أهمهـا طاعـون عـام 571هـ الـذي انتـشر

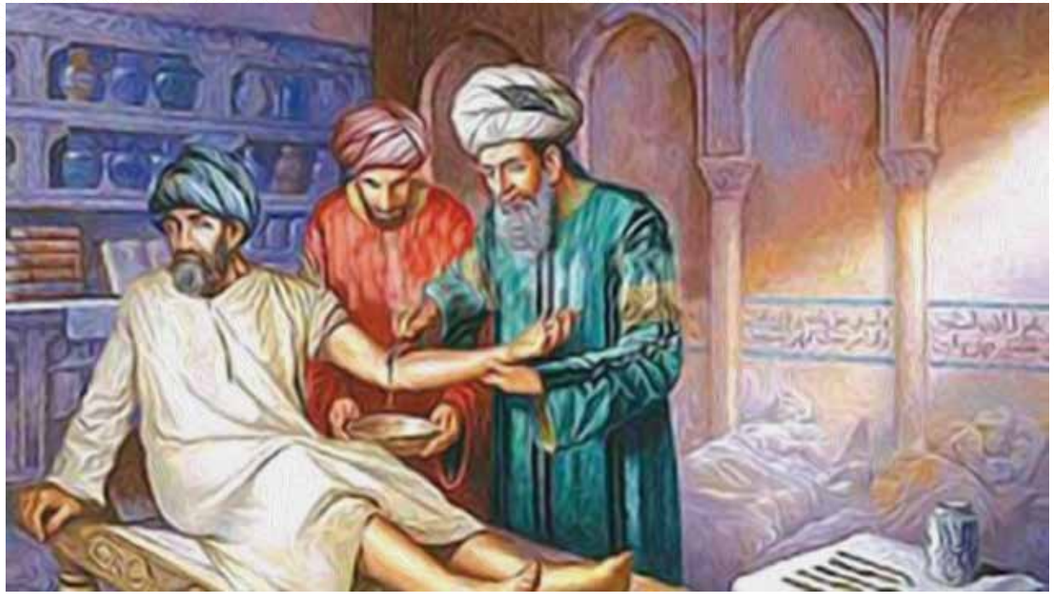

في بلاد المغرب والأندلس ويعتبر أهم طاعون عرفه عصر الموحدين، فقد كان له نتائج كارثية ولم يسلم منه أحد حتى أن أربعة أمراء من إخوة الخليفة يوسف بن يعقوب ماتوا فيه، بينما كان يموت بسببه ما بين 100 و190 من عامة الناس في اليوم الواحد (بنمليح، 2002، 124). وقد حدث في المغرب طاعون عام 1798م، والذي انتقل بالعدوى من التجار الذين حملوه معهم من الاسكندرية إلى تونس فالجزائر فالمغرب، وقد تفشى الطاعون في فاس ومكناس ووصل إلى الرباط، فكان يخلف 130 ضحية في اليوم (البزاز،1992، ص92).

كما أورد ابن عذاري المراكشي في سياق التأريخ لحوادث الأوبئة في الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أنه عام 498هـ/ 1105م تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك"، ولا شك أن ما أعقب كارثة القحط من مضاعفات سكانية واقتصادية بالمغرب والأندلس، كان بمثابة الشرارة المهددة لسلسة من الكوارث الطبيعية المتلاحقة. وكلما حدث اضطراب مناخي كان يدل في ذهنية إنسان تلك المرحلة على ظروف معيشية ونفسية وصحية أصعب، وفي نفس تلك الفترة أصيب المغرب والأندلس بسلسلة من القحوط والمجاعات في الربع الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث اجتاح جفاف شديد مدينتي فاس وغرناطة عام 524 هـ/ 1130م، وفي عام 526هـ/ 1132م اشتدت المجاعة والوباء بالناس في قرطبة، وكثر الموتى وبلغ مد القمح خمسة عشر ديناراً. واستمرت موجات الكوارث الطبيعية في العدوتين (الأندلس والمغرب) وخاصة في فترات المواجهة العسكرية وذلك في تناوب مستمر (البياض، 2008، 19 22-).

كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة في تاريخهم؟

في موجة طاعون عمواس، ذُكر أن المسلمين تحركوا في إطار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرضٍ؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ، وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه »، وهذا الحديث النبوي فيه إشارة واضحة إلى ما يطبق اليوم علمياً وعملياً من الحجر الصحي بهدف مواجهة الأوبئة المنتشرة، فرسول الله لم يكتف بأن يأمرهم بعدم القدوم إلى الأرض الموبوءة، بل أتبعها بأن أمر من كان في أرض أصابها الطاعون أن لا يخرج منها، وذلك لمنع انتشار العدوى فينتقل الوباء إلى مناطق أخرى، وبذلك فإن هذا الحديث لفتة إعجازية تضاف إلى سجل الطب النبوي.

وقد رجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بناء على هذا الحديث إلى المدينة ولم يدخل الشام بعد أن كان قد قصدها ولم يكن ذلك هرباً من الموت المقدر أن عمر أجاب أبا عبيدة بن الجراح عندما سأله عن سبب رجوعه إلى المدينة، قائلاً: أفراراً من قدر الله؟، فأجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو غيرك يقول هذا، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله... وعليه فقد أباح بعض العلماء الخروج على ألا يكون الخروج فراراً من قدر الله، والاعتقاد بأنَّ فراره هو الَّذي سلَّمه من الموت، أمَّا مَنْ خرج لحاجةٍ متمحِّضَةٍ، فهو جائزٌ، ومن خرج للتَّداوي فهو جائزٌ، فإنَّ تَرْكَ الأرض الوبئة، والرَّحيل إلى الأرض النَّزهة مندوبٌ إليه، ومطلوبٌ.

وقد طلب الفاروق بعد ذلك من أبي عبيدة أن يرتحل بالمسلمين من الأرض الغمقة الَّتي تكثر فيها المياه، والمستنقعات إلى أرضٍ نزهةٍ عالية، ففعل أبو عبيدة. وفي ذلك درس في الأخذ بأسباب الوقاية من المرض والوباء والابتعاد عن مصادره وأماكن استفحاله (الصلابي،2005 ص233(، بينما بقي أبو عبيدة بن الجراح وغيره من الصحابة في الشام ولم يخرجوا منها بعد أن أصابها الوباء. وقد أصاب بعض العلماء عندما ذكروا في حكمة النَّهي عن الخروج فراراً من الطاعون: أنَّ النَّاس لو تواردوا على الخروج، لصار مَنْ عجز عنه بالمرض المذكور أو غيره ـ ضائع المصلحة، لفقد من يتعهَّده حيّاً وميتاً، ولو أنَّه شُرع الخروج، فخرج الأقوياء؛ لكان في ذلك كسر قلوب الضُّعفاء. وقد قالوا: إنَّ حكمة الوعيد من الفرار من الزَّحف؛ لما فيه من كسر قلب مَنْ لم يفرَّ، وإدخال الرُّعب فيه بخذلانه.

وفي رواية أن الوباء لم يرتفع إلا بعد أن ولي عمرو بن العاص رضي الله عنه الشام، فخطب النَّاس، وقال لهم: أيُّها الناس! إنَّ هذا الوجع إذا وقع إنما يشتعل اشتعال النَّار، فتجنَّبوا منه في الجبال، فخرج، وخرج النّاس، فتفرقوا حتّى رفعه الله عنهم، فبلغ عمر ما فعله عمرو، فما كرهه.

وهنا نجد أنه نصح القوم المصابين بأن يتفرقوا عن بعضهم ولا يتجمعوا، حتى يقلل من نسبة انتقال العدوى، وحتى لا يهلكهم المرض كجماعات، بل يهلك من كان مصاباً به من الأفراد فيبقى الآخرون في معزل عن الإصابة به (الصلابي،2005، 231-232).

وقد طور المسلمون طرق مواجهتهم للطاعون والأوبئة فيما بعد، ففي العهد المملوكي ولمواجهة الأوبئة المنتشرة، والكثيرة التي أصابت أهالي الشام ومصر، عمد بعض السلاطين والميسورين من الناس بقصد الثواب والتقرب إلى الله، إلى بناء "البيمارستانات" في مدن الشام جميعها، لمداواة ورعاية المطعونين والمصابين بالأوبئة كالحمى وغيرها. ولأن الناس كانت تموت بأعداد كبيرة في فترة الوباء فإن الجثث كانت تترك ثلاثة أيام أحياناً على الأرض ولا يوجد من يواريها خوفاً من العدوى، ولذلك فقد عمد بعض الحكام والأثرياء استجابة لتعاليم الدين الإسلامي والتي تحض على دفن الميت بأسرع وقت ممكن حفاظاً على حرمته وكرامته، إلى إنشاء ما سمي بحوانيت أو مغاسل الموتى، والتي تهتم بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين ثم يتم دفنهم وفق الشريعة الإسلامية (الطراونة،2010، 55).

ولم ينس الناس أهمية التقرب من الله والدعاء إليه والرجاء منه في تلك الأوقات العصيبة، فأخذ أهل الصلاح والعباد من الناس يتوبون إلى الله ويستغفرون ويزيدون من العبادات، ومن أجل التقرب إليه فقد شرع بعضهم في إغلاق حوانيت الخمر، وابتعد الناس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات (الطراونة،2010، ص57)

وللمسلمين تجارب في تطبيق الحجر الصحي، فقبيل انتشار طاعون 1798م في المغرب، استطاع المغاربة تطبيق حجر صحي واتخاذ إجراءات للوقاية من الوباء الذي قدم من الشرق، فهم وإن لم يستطيعوا أن يتفادوه ولكنهم استطاعوا تأخير قدومه عدة سنوات، فهذا الطاعون أول ما بدأ في الإسكندرية في عام 1783م. والذي ساهم في تأخير قدوم الوباء مجموعة التدابير التي اتخذها سيدي محمد بن عبدالله لوقاية مملكته من الوباء المتفشي في الجزائر وذلك بأن أقام نطاقاً عسكرياً على الحدود الشرقية للمغرب، وبدأت الهيئة القنصلية المقيمة في طنجة في عام 1792م باتخاذ اجراءات صحية وقائية على الواجهة البحرية، بعد أن استطاعت انتزاع موافقة مولاي سليمان على فرض حجر صحي ضد الجزائر التي كان الوباء فيها قد تفشى آنذاك (البزاز،1992، ص87).

كـورونـا..
إعادة إنتاج «التراث الشعبي»

يُمثّـل الـتراث الشـعبي أو الفولكلـور، بصفـة عامـة، مخزونًـا ثقافيًـا تُسـجل بـه خـبرات الأجيـال السـالفة في صـورة معتقـدات ووصفـات وحكـم وأمثـال وروايـات وغيرهـا. وخـلال فـترات الأزمـات بصفـة عامـة وأوقـات انتشـار الأوبئـة، لا يعلـم الأفـراد كيفيـة التعامـل مـع الوبـاء وتبعاتـه، مـما يدفـع الفـرد إلى الاعتـماد عـلى ذاتـه في البحـث عـن بـاب للخـروج مـن هـذه الدوامـة.

ومـن أهـم المسـارات التـي يلجـأ لهـا الأفـراد عـادة في هـذه النوعيـة مـن الأزمـات البحـث في معطيـات الـتراث الشـعبي، سـواء لمحاولـة التعامـل مـع المـرض ذاتـه، فيـما يعـرف بالطـب التقليـدي أو الطـب الشـعبي، أو معطيـات الـتراث التـي تبعـث عـلى الطمأنينـة أو تلـك "الحكـم" والمقـولات التـي يبـدأ الأفـراد بتداولهـا للتكيـف مـع الأزمـة. ولـكل شـعب تراثـه المرتبـط بجملـة خبراتـه الإنسـانية، وهويتـه الدينيـة ومقدسـاته وتاريخـه.

وفي إطـار الأزمـة الحاليـة، أشـارت تقاريـر إعلاميـة صينيـة إلى أن 80% مـن مـرضى كورونـا في الصـين تلقـوا علاجًـا تقليديًـا، وقـد أكـد ذلـك نائـب وزيـر العلـوم والتكنولوجيـا الصينـي "شـو نانبينـغ"، بقولـه إن 85% مـن مـرضى كورونـا تلقـوا مزيجًـا مـن العـلاج الـدوائي والتقليـدي. وبغـض النظـر عـن فاعليـة العـلاج التقليـدي مـن عدمـه عـلى مواجهـة الوبـاء، إلا أنـه يؤثـر عـلى حالـة الفـرد، وقـد يعطيـه بعـض التـوازن الداخـلي المرتبـط باعتقـاده في فاعليـة الوصفـة الشـعبية.

وعـلى جانـب آخـر، ظهـرت ممارسـات أخـرى مرتبطـة بالمعتقـدات الشـعبية، مثـل شرب "بـول البقـر" في الهنـد باعتبارهـا وصفـة شـعبية ترتبـط بمعتقـدات دينيـة، وقـد اسـتضافت جماعـة هندوسـية حفـلًا لـشرب بـول الأبقـار السـبت في العاصمـة الهنديـة نيودلهـي، لاعتقادهـا أنـه يقـي مـن فـيروس كورونـا المسـتجد، لأن كثيريـن مـن الهنـدوس يعتـبرون الأبقـار مقدسـة، ويؤمـن بعضهـم بـأن لبولهـا خصائص علاجيـة، بغـض النظـر عـن صحـة هـذه المعتقـدات.

وعـلى الرغـم مـن خصوصيـة الـتراث الشـعبي، إلا أنـه في ظـل التواصـل بفضـل التكنولوجيـا تتشـارك الشـعوب الفولكلـور ويتـم تجريـب حلـول مـن تـراث شـعبي آخـر، فنجـد الطـرق الصينيـة والهنديـة وغيرهـا المرتبطـة بالحضـارات القديمـة مـن الأكـثر انتشـارًا عالميًـا.

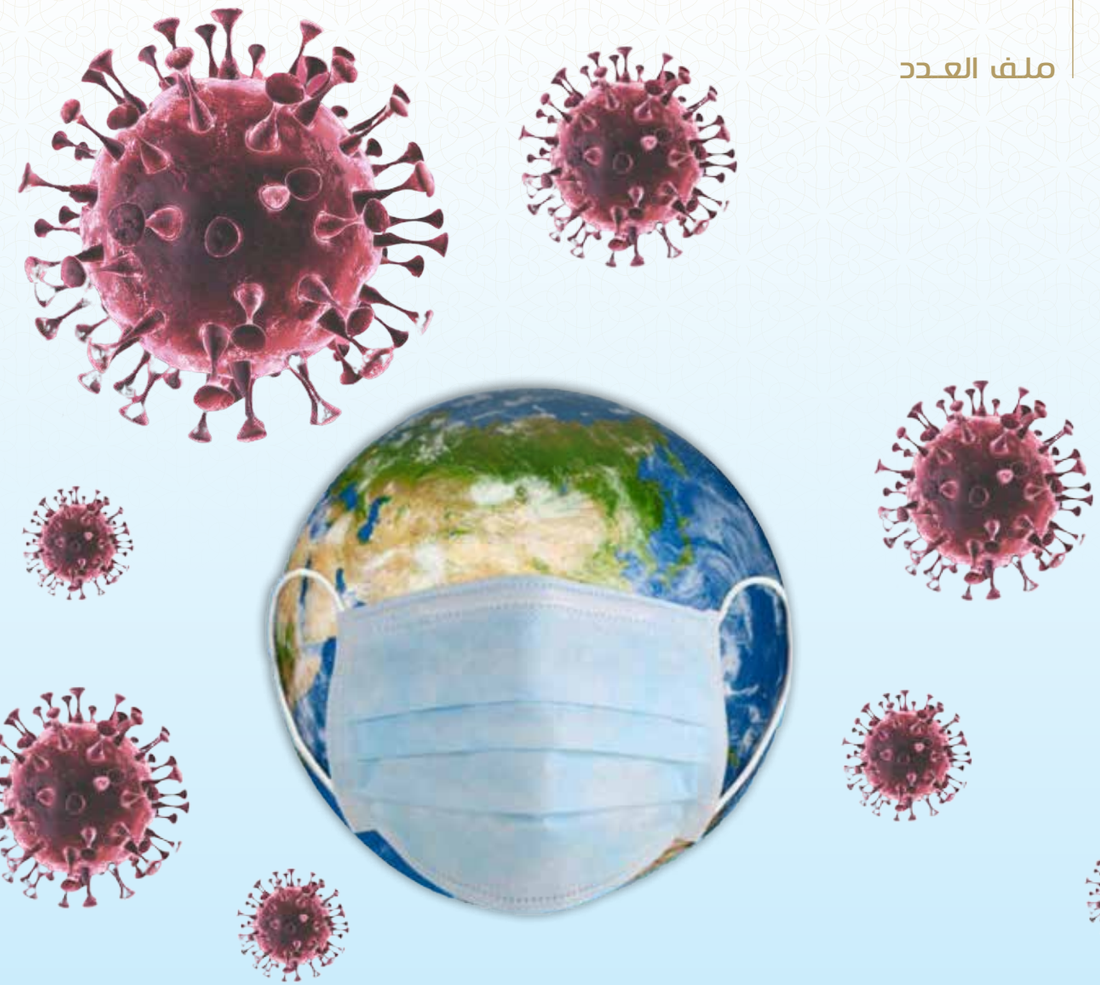

كورونا ..
جائحة أشعلت فتيل الإبداع

يستند الإبداع الثقافي على مر العصور المختلفة على أحداث ومشاهد وأزمات غيرت مجرى الأحداث وأطلقت العنان لخيال الكاتب أو الشاعر أو الباحث، في طرح ذائقته الفنية التي لمست القلوب، لما تتمتع به من صدق المشاعر ودقة التعبير عن أحاسيس مختلطة في ظل الكوارث والأزمات، ومع تداعيات انتشار «كوفيد-19» تفاعل المثقفين والأدباء والشعراء مع تلك الأزمة برؤى وأطروحات مختلفة في سياقها لتوثيق المشهد والكلمة في ظل العزل المنزلي .

العزلة والإبداع الثقافي

«البحث.. القراءة والنقد»، هاجس المبدعين والكتّاب والمثقفين الدائم، فلكل منهم طريقته الخاصة، وفي ظل هذا الواقع «المربك»، الذي يئن تحت وطأته العالم بأسره، لانتشار فيروس «كورونا»، ولكن كانت «للعزلة» فوائد على الأدباء والمثقفين والباحثين، حيث ساعدتهم على استلهام الوحي، لإنهاء مشاريعهم الأدبية، وتقديم منتج إبداعي جديد.

حيث قالت صالحة غابش، مديرة المكتب الثقافي والإعلامي بالمجلس الأعلى لشؤون الأسرة بالشارقة، إن الألم المصاحب لتجربة «كوفيد 19» من مرض أو فقْد شخص عزيز، يمكن أن يكون بداية لنص إبداعي، ومسار لكتابة إبداعية، بهدف تسجيل المشاعر، مشيرة إلى أننا حالياً نقرأ عن أوبئة حدثت في أزمنة ماضية، وخلّدتها النصوص الأدبية.

وأشارت غابش إلى أن الثقافة جزء من مكونات المجتمع، وهي التي تسجل التاريخ والحاضر والمستقبل، موضحة أنها ستلعب دورها من خلال مرحلتين، أولاهما هي المرحلة الحالية التي نعيشها الآن، والتي يقوم فيها الإعلام بعمليات التثقيف المستمرة بماهية هذا الشيء، والتدابير التي يجب أن يتخذها الإنسان حتى يحمي نفسه، وهو الجزء المهم.

وأوضحت أن المرحلة الإبداعية هي المرحلة الثانية، والتي ستأتي بعد انحصار الجائحة، فيمكن أن تتحول إلى نص إبداعي في المسرح أو السينما أو مجموعة قصصية، والكثير من الشواهد تقول إن الأزمات التي تمر بها المجتمعات تصبح مداداً خصباً للكتابة، حتى تهدأ الأمور، ويبدأ المبدعون، كلّ من وجهة نظره، حيث يوظف هذه الأحداث بأسلوب أدبي؛ لأن هذه الأحداث تثري خيال الكاتب.

وأوضحت الكاتبة أسماء الزرعوني أن العزلة هي حكمة من الله، سبحانه وتعالى، وهي اختيارية، حسب شخصية الإنسان العاقل والفاهم ما يجري حوله، كما أن العزلة كانت لها فوائد، فقد اتضحت أمور كثيرة من حولنا، وهناك الكثير من الأدباء والمثقفين أبدعوا في مجال إبداعهم، فالعزلة تبين لنا أن دولة الإمارات صامدة في وجه الأزمات، وأنها من أوائل الدول التي عندها المنظومة التعليمية المتكاملة، وكذلك العمل عن بعد، فلم تؤثر العزلة كثيراً، أما المؤسسات الثقافية أيضاً فتدير ندواتها الثقافية عبر الوسائل الذكية، بمشاركة الكتاب والمثقفين. وهناك كثير من الكتاب الذين أبدعوا من خلال العزلة، بمقالات كتبت، وكتب إلكترونية، كما أن الجلوس في البيت اكتشف مواهبنا وإبداعاتنا.

«كـورونـا»
في الشعر الشعبي

د. سالم الطنيجي

الشـعر الشـعبيّ، كـما يقـال، هـو مـرآة للحيـاة الاجتماعيـة للإنسـان، وللأحـداث والمواقـف اليوميـة التـي تكـون في المجتمـع، وكثـير مـن كتّـاب التاريـخ والـتراث الشـعبي اسـتدلوا، بـل توصلـوا إلى حقائـق دقيقـة للسـلوك الإنسـاني، والثقافـة الشـعبية السـائدة في ذلـك الوقـت الـذي يرتبـط بالزمـن المـاضي، والتاريـخ الشـفاهي يـبرز ويظهـر بصـورة واضحـة مـن خـلال الشـعر الشـعبي، الـذي يعكـس الحيـاة الاجتماعيـة بتجلياتهـا المختلفـة، وبمـا فيهـا مـن مشـاهد متباينـة وصـور، وانعكسـت هـذه المشـاعر عـلى الشـخصية الإنسـانية البدويـة، وهنـا أمسـك الشـعراء الخيـط الـذي مـن خلالـه أبدعـوا في التصويـر الجـمالي للأحـداث التـي واجهتهـم، بشـقيها المفـرح والتعيـس، وقالـوا القصائـد التـي تفيـض بالمعانـاة، ونحـن اليـوم أمـام حـدث لم يكـن في الحسـبان، حيـث ظهـر وضرب وانتـشر في كثير من الـدول، وحـدث مـا لم يُتوقـع مـن إصابـات ووفيات، وكذلـك هنـاك شـفاء مـن هـذا المـرض الـذي اجتـاح قـارات العـالم، وجعـل كثيريـن يعيشـون في رعـب ووجـل وخـوف، إنـه فـيروس «كورونـا»، ولقـد سـمعنا تأويـلات كثـيرة حـول هـذا المـرض، مـن حـرب بيولوجيـة موجهـة، إلى مـرض انتـشر كـما تنتـشر النـار في الهشـيم، وحصـد الأرواح والجهـود، كـما حققـت دول نجاحـات، وذلـك في الحـدّ مـن انتشـاره، أو السـيطرة عليـه، وكـثرت الأقاويـل المؤلمـة حـول تعامـل الـدول ومنظـمات الرعايـة الصحيـة، وكذلـك الأثـر السـلبي الـذي فرضـه عـلى الأنظمـة التعليميـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة، وكذلـك السياسـية لكثـيرٍ مـن الـدول حـول العـالم.

ومـا يهمنـا اليـوم في هـذا السـياق، هـو كيـف أعطى الشـعراء مسـاحات مـن الأمـل والتفـاؤل، وبـثّ روح الإيجابيـة، وإعطـاء النصائـح والحكـم في التعامـل مـع هـذا الضيـف غـير المرحـب بـه، نتيجـة الضغـط الـذي فرضـه عـلى الإنسـان والحيـاة في البادية، وهنـا نعـرض بعـض المحـاولات الدقيقـة لهـذا البعـد المفاجـئ للمـرض، ومـن ضمـن المحـاولات نجـد قصيـدة الشـاعر سـعيد بـن سـيف الطنيجـي، التـي تنـاول فيهـا هـذا المـرض (العـوق)، كـما يطلق عليـه في مفـردات الـتراث الشـعبي، وأخـذ الشـاعر هـذه المفـردة، وبنـى عليهـا هـذه القصيـدة، التـي يقـول فيهـا:

خوفٍ من العدوى وبعدٍ عن العـوق
كـلٍ ف بيتـه مايقـارب اصحـابـه
ياهم قدر من خالجٍ الكون من فوق
والناس حتى اليوم تجهل اسـبابه
الناس شتّى وأصبـح الوصل مـرفـوق
وكـل واحـدٍ منـهم أمّـابه هبابـه
حتى المجـالـس مابهـا حـد والسـوّق
كانت قبل شرحـه وفيهـا رحـابـه
والمسجد اللي من قبل كـان مطلـوق
خـوفٍ من العدوى مغلّق أبوابـه
ف القلب له لهفه وزايد لـه الشـوق
شـوق الذي يرجى زيارة أحبـابه
وإن زال هـذا الشر كل شيءملحـوق
والخير ف اللي ماحسبنا أحسابـه

وقـد أسـدى الشـاعر سـعيد الطنيجـي نصيحتـه للجميـع، التـي يقـول فيهـا: خوفـاً عليكـم مـن انتقـال العـدوى، واتقـاء المـرض، لابـد مـن الجلـوس في البيـت، وعـدم الخـروج منـه، وألّا يلتقـي الإنسـان أصحابـه، وهـذا المـرض الـذي أطلـق عليـه «القـدر»، أرسـل إليهـم مـن اللـه، سـبحانه وتعـالى، خالـق الكـون والبـشر، ولاتـزال أسـبابه مجهولـة حتـى وقتنـا الحـاضر، والنـاس في ذهـول شـديد، إذ تفرقـوا، وانعدم الوصـل فيـما بينهـم، ومنـع الاتصـال والتواصـل البـشري، وكلّ منهـم همّـه كبـير، ويتحمّـل ثقـل هـذا المـرض، وفي الوقـت المـاضي، وقبـل ظهـور المـرض، كانـت المجالـس والأسـواق مشروحـة ومملـوءة، والآن أصبحـت خاليـة مـن المـارة، ووصـل الأمـر إلى دور العبـادة، حيـث كانـت المسـاجد مشرّعـة الأبـواب، فأصبحـت مغلقـة، وذلـك اتقـاء انتقـال العـدوى بـين المصلـين، ووصـف المسـجد بـأن لـه لهفـة وشـوقاً، وشـبّهه بمـن يشـتاق وينتظـر أحبابـه بعـد سـنوات طويلـة، ويعـد في الشـطر الأخـير بـأن كل شيء ملحـوق في الحيـاة، والمهـم هـو زوال هـذا المـرض، والخـير دائمـاً في الـشيء الـذي لم نعمـل لـه حسـاباً.

أبيـات قصـيرة تحتـوي عـلى النصـح والإرشـاد، فيهـا كلـمات امتزجـت بالدقّـة، وقـوة المعنـى، أراد الشـاعر إيصـال رسـالة حـول هـذا المـرض، وطريقـة تجنـب العـدوى، وحقّـق مـا أراد، وكذلـك اسـتطاع أن يعكـس الحـدث الـذي أمـسى حديـث النـاس، والـذي شـكّل كابوسـاً مرعبـاً لهـم (الكورونـا)، وأصبحـت العلاقـات الإنسـانية المبـاشرة مفقـودة، والـكل يجلـس في بيتـه.

ولذلـك امتـازت أشـعار سـعيد بـن سـيف الطنيجـي بالجـرأة والمبـاشرة، والتوغـل في الحكـم، والإرشـاد والنصـح، وتقريـب الصـورة التـي يـود إيصالهـا إلى المسـتمع، مـن خـلال هـذه الكلـمات التـي جـاءت مختـصرة، مـن حيـث أبياتهـا، ومسـهبة مـن حيـث معانيهـا، والشـعر، كـما يقـال، فيـه الحكمـة والبلاغـة والتناغـم مـع مجريـات الحيـاة بتناقضاتهـا المختلفـة.

«خلّك بالبيت»[1]

محمد محفوظ المصطفى
شاعر موريتاني

من لِي بالصّبرْ
من ذا للأمة بالتفريجِ ووَقْفِ الحَجْرِ ورَفْعِ الحَظْرْ
من لِي بالنّصْر..
على «مَيْتٍ» جَرَّعَ كلَّ الأحياءِ زُعافَ القَهْرْ

في طَرْفةِ عينٍ أضحى لي أعدى الأعداءْ
وتحدَّى أمتَنا جَمْعاءْ
قد أعلنَها حَرْباً شَعْواءْ

بالأمسِ تَرَعْرَعَ في «وُوهانْ»
وبها قد كان بـ«نَشْأتِه الأولى» ما كانْ!
وبذاتِ عَشيَّة يومٍ أو بضحاها..
خضَّب وجهَ الأرضِ دماً وسَمَاهَا..
حَطَّمَ سُورَ الصِّينِ ووهمَ الغربِ وبدَّدَ أحلامَ الإنسانْ
أمْلَى شِرْعَتَهُ في كلِّ البلدانْ..

مِنْ أيْنَ أُوَلِّي الوجْهَ أراهْ
فيُراوِدُني في كلِّ مكانْ
أرعاهُ فآخذُ حذرِي فيَراني مِنْ حَيثُ أراهْ
يأتيني مِن حيثُ أمِنْتُ فآخذُ حِيلَتَهُ في الحُسْبَانْ
لوْلا التَّفنيدُ لأقسمْتُ لكُمْ إنِّي أسمعُهُ بعضَ الأحيانْ

يَكمُنُ في محفظتي بيَدي
بِلَمَاها... قَلَمِي في كفِّ صديقي
إذْ يَسأمُ مِنِّي يقْبَعُ كَيْ يغتالَ مَشُوقاً يستقبلُني بالأحضانْ
ويَرُوغُ بِبَوْحِ مُعَلَّلَتِي ويُخَاتِلُها في مَبْسَمِيَ الوَلْهانْ
(يا ليلُ الصَّبُّ متى غدُهُ)[2].. كلٌّ قد بات يُرَدِّدُهُ..
لا بأسَ عليكِ طَهُورٌ إنْ شاءَ المنانْ
أتنحنَحُ من خَلْفِ حِجابٍ، لا أعطِسُ رِفقاً بالجيرانْ

بالغَدْرِ تَسَوَّرَ بيتَ اللهْ
أوْدَى بسكينَتَنَا، يَندَسُّ خِلالَ الصَّفِّ كما الأشباحْ
أغْلَقْنَا المسجدَ - تَحْتَ نَحِيبِ العُمَّارِ- لحِفْظِ الأرْواحْ

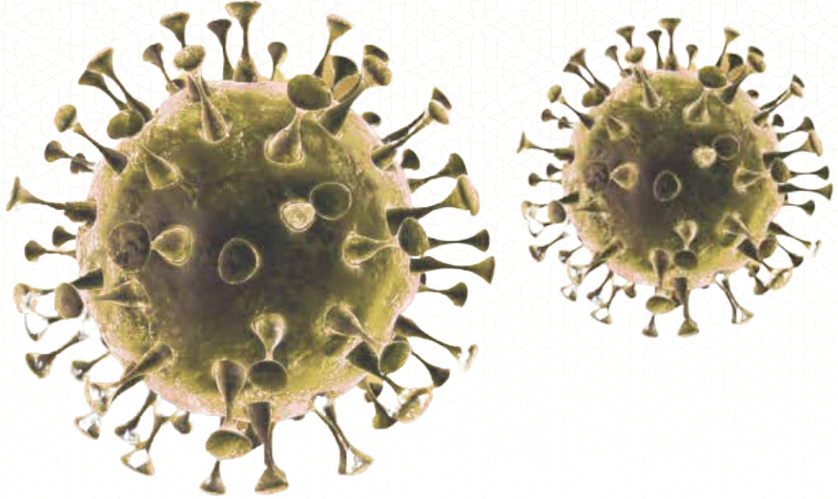

في الغِرَّةِ يَكْمُنُ في الأنفاسْ
يَضــرِبُ أخماساً للأسْدَاسْ
لا يخشَى سَطَوَاتِ الحُرَّاسْ

أنا لستُ جباناً أَتْرُكُ قِرْنِي أَبْغِي النَّجْدةَ كالمَلْهُوفْ
لكـنَّ شِعَارَ دِفـاعِ الخطِّ الأوَّلِ «نَمْ نَكْفِيكَ الخوْفْ»
وجُنُودُ الجيشِ الأبيضِ قد هجروا مِنْ أجْلِي البيتْ
كَمُّوا الأفواهَ، تَرَدَّوْا لَأْمَةَ حَرْبٍ، سَدُّوا قَارِعَةً للموتْ
ولأنَّ سُمُوَّ شُيُوخِ الدولةِ قالوا لي «خَلَّكْ بالبيتْ»
باقٍ لسلامتِهِمْ بالبيت..
باقٍ لسلامتِنا بالبيت..

باقٍ بالبيتِ، وعن بُعْدٍ سأُمارِسُ عاداتِي بأَمانْ
هُوَ لنْ يَسْطِيعَ لها نَقْباً..
أو يَظْهَرَهَا نَحْوِي الجُدْرَانْ

ثُمَّ اخَتَرْ «كُورُونَا» أيَّ الأمصالِ بِهِ سَتَبِيدْ
أيَّ الجَنْبَيْنِ عليهِ تكُونْ
بلْ بُؤْ بِلَهِيبِ الشَّمسِ..
بِلفْحِ القَيْظِ..
بِلَسْعِ كُحُولٍ أو صابُونْ
بِسِهامِ الليلِ فَلَا تُخْطِي.. وَلَهَا أَجَلٌ حَتْمٌ مَّضْمُونْ
(فاشتدِّي أزمةُ تنفرجِي
قدْ آذنَ ليلُكِ بالبَلَجِ
يا ربِّ فعجِّلْ بالفرَجِ)[3].

1. القصيدة خببية حرة تفعيلية، استعملت فيها: فَعِلُنْ، فَعْلُنْ، فاعِلُ، فعِلَتُ، فعلانْ..
2. صدر مطلع قصيدة الحصري القيرواني الغنائية الشهيرة.
3. الأشطر الثلاثة الأخيرة من قصيدة التضرع المشهورة بالمنفرجة لابن النحوي التلمساني.

الطبّ التقليدي الصيني: علاج عالمي مرتقب

جين تشانبنغ (طيّار)

ما إن انحسر فيروس «كورونا» الجديد في الصين، حتى وضع الوباء دول العالم في خطر، ولاتزال أعداد المصابين تتزايد في إيطاليا وإيران وإسبانيا وألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا وكوريا الجنوبية وغيرها من الدول.

قبل يومين، قرأت خبراً بأن 107 مصابين كانوا في حالات حرجة، وتوفوا في أحد المستشفيات في إيطاليا، شعرت بحزن شديد عند معرفة هذا الخبر؛ فكم يعاني الأطباء في المستشفى، وأقرباء وأصدقاء المصابين اليأس والحزن!

أصدرت مجلة ذا لانسيت (The Lancet)، مجلة طبية عامة مراجعة، تقريراً في 2018، بأن المستوى الطبي الإيطالي يحتل المرتبة التاسعة في العالم. ولكن بلغ معدل الوفيات من فيروس كورونا 8.3%، وهو ضعفا المعدل في الصين، فليس لدى إيطاليا علاج فعّال أو دواء خاص، مع أنها تتمتع بالطب الحديث والمتقدم في العالم، بينما أتاحت الصين لدول العالم فترة إعداد ما يقارب الشهرين.

يذكرني هذا المشهد بالإنفلونزا الإسبانية التي انتشرت عام 1918، في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، حيث أصاب الفيروس مليار شخص، وسُجّل 40-50 مليوناً وفيات في أنحاء العالم، وهو ما يتجاوز عدد الوفيات خلال الحرب العالمية الأولى، فأصبح الوباء الأكثر فتكاً في تاريخ البشرية. لم تنجح الصين في تجنب هذا الوباء العالمي أيضاً. ومع ذلك، كان تفشي وباء الإنفلونزا في الصين أقل خطورة، مقارنة مع الدول الأخرى، حيث كان معدل المصابين والوفيات منخفضاً؛ وذلك لأن الطب الصيني التقليدي كان من طرق العلاج الأساسية في الصين للسيطرة على الإنفلونزا حينذاك.

ويجدر بالذكر أيضاً إنفلونزا الخنازير (إنفلونزا H1N1) التي بدأت في أمريكا عام 2009، ووفقاً للتقديرات

النهائية أنها أصابت ما يقدر بـ60.8 مليون شخص، بين 12 أبريل 2009 و10 أبريل 2010، و274 ألف حالة دخول للمستشفيات، و12469 حالة وفاة في الولايات المتحدة. أما في الصين، فتم تأكيد أكثر من 127 ألف حالة، وعلاج 122 ألف حالة، وتوفيت 800 حالة حتى 31 مارس 2010.

إن عدد الإصابات وعدد الوفيات في الصين أقل بكثير من الدول الأخرى، سواء في الإنفلونزا الإسبانية عام 1918، أم في إنفلونزا H1N1 عام 2009. ومما أسهم في مكافحة الوباء الطب الصيني التقليدي. في الواقع، على الرغم من أن الطب الصيني التقليدي لعب دوراً فعّالاً في التخلص من العديد من الأوبئة على مر التاريخ، ولكن تأثيراته الإيجابية لم تجذب انتباه الجمهور في مكافحة الأمراض، إلا عند تفشي فيروس كورونا الجديد عام 2020، ويرجع السبب إلى تطور وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة.

في بداية تفشي الوباء في مدينة ووهان في مقاطعة هوبي وسط الصين، لم يُستخدم الطب الصيني التقليدي في عملية العلاج حتى 15 فبراير تقريباً. هو شياو يوي، طبيب في المستشفى التابع لجامعة الطب الصيني التقليدي في مدينة تشنغ دو، وأحد عناصر الفريق الطبي الصيني الذي وصل إلى مقاطعة هوبي، قال: قبل فترة، وصفت وسائل الإعلام مدينة ووهان بأنها في «اللحظة المظلمة»، حيث كانت موارد الطب الصيني قليلة، فلم تدخل عملية العلاج على نحو شامل. بينما الطب الغربي ليس له وسيلة فعّالة، إلا تطبيق العلاج النفسي الداعم في علاج المصابين الذين عانوا حالات حرجة، حيث تتفاقم أعراضهم يوماً بعد يوم، وهذا ما يسمى بـ«اللحظة المظلمة».

وأثبت الجمع بين الطب الصيني التقليدي والطب الغربي في علاج مصابي فيروس كورونا الجديد فعاليته، من خلال العدد الكبير من المرضى المتعافين، حيث تلقت الغالبية العظمى منهم علاجات من الطب الصيني التقليدي، قبل مغادرتهم المستشفيات، ما أسهم في علاج 74603 حالات مؤكدة على مستوى الصين، وهو ما يمثل 92.5% من الإجمالي، وفقاً للبيانات الرسمية.

ويركز علاج الطب الصيني التقليدي على تحسين دفاعات الجسم الطبيعية ضد الوباء، وقدرته على إصلاح نفسه، مع الحفاظ على التوازن العام.

وبالمقارنة مع أولئك الذين عولجوا بالطب الصيني التقليدي وحده، أو بالطب الغربي، أكد فريق من الخبراء أن العلاج المتكامل للطب الصيني التقليدي والطب الغربي يمكن أن يعالج أعراض الحمى والسعال والتعب بسرعة أكبر، ويقلل كذلك بشكل فعّال من تطور أعراض خفيفة ودورية إلى أعراض شديدة أو حرجة، وذلك لتحسين معدل الشفاء، وتقليل معدل الوفيات.

إن الحساء البني عبارة عن مزيج يحتوي على أكثر من 20 عشباً طبيعياً مختلفاً، منها أعواد القرفة وجذور العرقسوس والإفيدرا، وهو يعزز القدرة على مقاومة الأمراض، ويتناوله المرضى في المستشفيات الصينية مرة صباحاً وأخرى مساء.

الوصفة الطبية روجت لها الإدارة الوطنية للطب الصيني التقليدي ولجنة الصحة الوطنية، كعلاج مناسب للمرضى الذين يعانون أعراضاً خفيفة إلى خطرة، ومنذ ذلك الحين تستخدم على نطاق واسع في ووهان والمقاطعات الأخرى.

عندما أرى دول أوروبا الغربية التي تتمتع بالطب العالي المستوى، تعجز عن علاج المصابين الذين يعانون أعراضاً حرجة، أشعر بحزن عميق وتعاطف شديد، في حين أعتقد أن الصين محظوظة للغاية، حيث لديها الطب الصيني التقليدي، فأنا سعيد بأن هذا العلاج التقليدي فعّال وقوي، على الرغم من التحيزات، ويجب أن يحصل على فرصة التنمية بعد انتهاء الوباء، كما أتمنى أن يصبح الطب الصيني التقليدي طباً معتمداً عالمياً.

وأخيراً، أنا فخور بأنني صيني، وفخور بطبنا الصيني التقليدي، فلنشارك تجربتنا المتعلقة باستخدام الطب الصيني التقليدي في العلاج مع الخبراء الأجانب، ونأمل أن يحترم العالم الأطباء والممرضين، والتجربة الصينية التي حققت انتصاراً حاسماً. وأتمنى أن يحقق العالم انتصاراً في مكافحة فيروس كورونا الجديد، ويستقبل الفجر في أقرب وقت ممكن!

الشاعرة
عفراء بنت سيف المزروعي

عتيج القبيسي
شاعر وباحث تراثي

هي عفراء بنت سيف بن أحمد بن عبدالله بالعشّار المزروعي، واحدة من شاعرات أبوظبي اللاتي تربعن على ساحة الشعر الشعبي حتى نهايات القرن المنصرم، وقد مَلأت أشعارها أسماع المتذوقين، وأصبحت شهرتها كشاعرة تضاهي شهرة شعراء آخرين كانوا يعاصرونها، خاصة شعراء أبوظبي، أمثال أحمد بن فاضل المزروعي، وعبدالله بن سلَيِّم، وسعيد بن هلال الظاهري، وهلال بن فريح القبيسي، وغيرهم من الشعراء.

ولدت شاعرتنا في أبوظبي عام 1905، عندما كانت أبوظبي عبارة عن جزيرة يقطنها عدد قليل من قبائل بني ياس، الذين كانوا يعيشون على صيد الأسماك والغوص بحثاً عن اللؤلؤ واستخراجه، أمّا البدو الذين كانوا يعيشون خارجها، فقد كانوا يعتاشون من تربية الإبل والمواشي، ونقل وبيع الحطب والفحم إلى أبوظبي والمدن الساحليّة الأُخرى، كدبي والشارقة وعجمان.

كانت ولادتها في أواخر عهد المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن خليفة الفلاحي، (زايد الكبير)، وقرضت الشعر في سن الـ 18 في عهد الشيخ شخبوط بن سلطان، وقد عاشت شاعرتنا طيلة حياتها في أبوظبي، وتزوجت من محمد بن علي بن دحّوه المزروعي، لكن هذا الزواج لم يستمر، إذ تطلّقت وهي حامل بابنتها مريم، التي عاشت في كنفها في بيت مستقل بالقرب من بيت الشيخ حامد بن بطي آل حامد القبيسي، حيث توطدت علاقتها مع الشيخة شمسة بنت أحمد، حرم الشيخ حامد، وأصبحت إحدى ملازماتها، وصارت لا تفارقها في الحل والترحال، حتى غدت جزءاً من عائلة آل حامد الكرام، وقد أبدعت في مدح الشيخة شمسة والشيخ حامد وعموم آل حامد، وعاشت معهم طيلة حياتها.

ولها أيضاً صلة، من بابٍ آخر، بالشاعرة الكبيرة عوشة بنت خليفة السويدي، (فتاة العرب)، حيث إن ولادتها كانت متلازمة مع ولادة ابنتها مريم، فأرضعتها معها، وبذلك تكون شاعرتنا عفراء بنت سيف أُمّاً للشاعرة فتاة العرب بالرّضاع، وكأنها كما أرضعتها حليبها أرضعتها الشعر

وفنونه، لتصبح عوشة بنت خليفة الشاعرة المعروفة، وقد قالت الشاعرة فتاة العرب في مقابلةٍ لها في جريدة الاتحاد عام 1984: «تأثّرت بالتي أرضعتني، وهي عفراء بنت سيف المزروعي، وكانت شاعرة تجيد فن القول، وعندما كبرتُ وبدأت أقول الشعر كانت تقول لي وهي ضاحكة: إن هذا الشعر استقيتيه منّي».

أما عن وفاتها فقد كانت في عام 1995، إثر إصابتها بحمّى لازمتها لمدة ثلاثة أيام، ثم فاضت روحها إلى بارئها عن عمر ناهز الـ 90 عاماً، وتقول ابنتها مريم (التي وافتها المنيّة مؤخّراً في هذا شهر مارس الماضي من هذا العام 2020): «كانت أمي بكامل وعيها وصحتها وعافيتها قبل إصابتها بتلك الحمى التي أدّت إلى وفاتها».

رحم الله شاعرتنا عفراء بنت سيف التي تركت لنا إرثاً أدبياً راقياً، اخترنا لكم منه هذه الرائعة، وهي مجاراة لرائعة الشاعر أحمد بن علي الكندي (سيّدي يا سيد ساداتي)، تقول الشاعرة:

اسهران الجفن ما باتِ ... بالكرى ما غمّضَت عيني
من محبٍّ قاطع الواتي ... من عقب ما وصله ايِّيني
سِمْع فِيّه قول لوشاةِ ... والقرايب والمعاديـنِ
وين قدري وين مَدراتي ... صَد عنّي من عقب زينِ
يا حبيبي خَل ما فاتِ ... لا تطاوع قول موشينِ
الشره لك يا مداماتي ... في حقوقك يوم تيفيني
والعتب في الحب عاداتِ ... يوم ليلى والمجينينِ
وانت حقّي دون حاياتي ... تأخذ حقوقك وتوفيني
وافني والحق مرضاتي ... إنت ترضى به ويرضيني
يالضنين الغالي الذاتي ... نظرتك مِ البعد تشفيني
تشفي جروحي وعلّاتي ... وكل ما يا منك يكفيني
إنت طبّي دون دون دوياتي ... وِانت ودّي مِ المودّينِ
مَ اختِلَف عهدي ونيّاتي ... كان هذا العذر بِنجيني
با نجيكم بعض الاوقاتِ ... في «البيوك» اللي يوَدّيني
في شوارع دون سيداتِ ... كاملٍ من كل تمرينِ
ماشيين بكل حالاتِ ... في الأمر وِلْكُم مطيعينِ
للنبي أزكى صلاواتي ... عَد ما طافوا ملبينِ

تحوّلات فن «النوبان» الشعبيّ في الإمارات

نظرةٌ أنثروبولوجيّة

علي العَبْدان
شاعر وتشكيلي وباحث تراثي
الإمارات

يُعدّ التراث الفني أحدَ أهم فروع التراث الثقافي غير المادي، وذلك بسبب اشتماله على أنواع مختلفة من الفنون والآداب الشعبية الأخرى، منها الألحان والإيقاعات الموروثة، ومنها الأداء الراقص الحيّ بمختلف أنواعه، ومنها النصوص المُغنّاة التي تُمثلُ أدباً تراثياً؛ سواءٌ كان شعراً أم نثراً، ومنها الأزياء التراثية الرجالية والنسائية التي تُرتدى لأجل أداء الفن، ومنها أيضاً الحِرَف الشعبية المتعلقة بصناعة الآلات الموسيقية التراثية المُستخدمة في الفنون المختلفة، فاشتمالُ التراث الفنيّ على كل هذه الفروع يُعطيه أهميةً خاصةً ضمن عموم التراث الثقافي، كما تعود أهمية التراث الفني أيضاً إلى قدرته على التكيّف والبقاء، فمعظم أنواعه كانت قد دخلت في أطوارٍ وتحوّلاتٍ عديدة، فهناك الكثير من الفنون الشعبية التي تغيّرت بعضُ سِماتِها بفعل عواملَ مختلفة، ومن تلك العوامل تغيّر البيئة، واختلاف العادات والتقاليد، واستعمال أجناسٍ موسيقيةٍ جديدة، وتكييف الآلة الموسيقية الشعبية لهذه الأجناس الموسيقية الجديدة، ومن خلال ملاحظة مختلف العوامل التي أدت إلى حصول تغيّراتٍ قد تكون نوعيّةً أحياناً كثيرةً في التراث الفنيّ يُمكنني القولُ بأن مبدأ «الصراع من أجل البقاء» كان مُحرّكاً أساسياً في تلك التطورات التي حصلت للفنون الشعبية، فمن أجل بقاء الفن الشعبيّ الموروث كان الفنانون والحِرَفيّون يستجيبون للتأثيرات الطارئة، ويدخلون فيما يمكن أن يُسمّى «ظرف التكيّف مع المُتغيّرات»، ومن ثَمّ أصبح الفن الشعبيّ الموروث قابلاً لإدخال التعديلات الضروريّة للإبقاء عليه حيّاً ومستعملاً.

وسأخصّ هذا المقالَ بالنظر في تحوّلات أحد الفنون الشعبية في الإمارات، هو فن «النوبان»، كأنموذجٍ يمكنُ قياسُ غيرِهِ من الفنون التراثية عليه، وذلك في ضوء المنهجيْن التطوريّ والانتشاريّ لعلم الأنثروبولوجيا، إذ يُمكّننا ذلك من فهم وتفسير ظاهرة التغيّر في الفن الشعبيّ عبرَ استقراء ومُعايَنة تأثير العوامل الجغرافية، والديموغرافية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية في الفن الشعبيّ في مختلِف جوانبهِ الأدبية «النصوص»، والأدائية «الرقص»، والفنية «الأجناس الموسيقية والإيقاعية»، والحِرفية «صناعة الآلات»، والاجتماعية «الأداء المُشترَك للرجال والنساء».

إن فن «النوبان» هو أحد الفنون التي جاءت إلى منطقة الإمارات وعموم سواحل الخليج العربيّ منذ نحو مائتي عام، و«يرجع أصله إلى إقليم النوبة الذي يقعُ جغرافياً بين مصر والسودان؛ لذلك سُمّيَ هذا الفن في الإمارات خاصة بفن «النوبان»، كما يُطلقُ عليه في الخليج بشكلٍ عام اسم «طنبورة» أو «فن الطنبورة»، نسبةً إلى الآلةِ الرئيسةِ التي تُعزفُ فيه، وهذه الآلة كانت تستخدمُها في الأصل قبائل «البجّة» في إقليم النوبة، وتُسمى هذه الآلة في السودان «الطنبور»، لكنه ذو حجمٍ صغيرٍ قياساً بالطنبورة الخليجية، ومن هناك انتقلت إلى البحر الأحمر، ثم اليمن، وعُمان، وسواحل الخليج العربي، ومن ثم إلى منطقة البصرة، وأصبح هذا الفن مشهوراً ومعروفاً لدى أهالي هذه المناطق، ويُعد الآن من فنونهم الشعبية المعتمدة، ونلاحظ أن أحجام وأسماء هذه الآلة قد تنوّعت بانتقالها؛ حيث نجدُ آلة تشبهها في بلدان البحر الأحمر تُسمى «سمسميّة»، و«تُستخدم حالياً في مدينة بورسعيد في جمهورية مصر العربية، وأيضاً في غرب المملكة العربية السعودية؛ حيث تُستخدم هناك في فن (الخبيتي)، وكذلك فن (الينبعاوي)، كما تطور (الطنبور) النوبي أو السوداني إلى (الطنبورة) الخليجية التي أصبحت أكبرَ حجماً كما ذكرنا»[1].

لقد طالت فن «النوبان» تطويراتٌ عدة؛ لم يكن جميعها إيجابياً بالضرورة، فبعضُ التطويرات عادت سلباً على أصالة هذا الفن، وفيما يلي عرضٌ لخمسة تطويراتٍ حصلت لهذا الفن نتيجة عواملَ مختلفة:

1. تطور آلة «الطنبورة»: وهي الآلة الرئيسة المستخدمة في فن «النوبان»، ونتيجةً لانتقال هذا الفن عبر بلدانٍ عدة في مراحل تاريخية مختلفة لها ظروفها الخاصة تغيّر حجمُ الآلة كثيراً، كما رأينا في الفقرة السابقة، وقد يعود ذلك جزئياً إلى وفرة مواد الصناعة في البلدان التي انتهى إليها هذا الفن، إذ يُلاحظ أنها بلدانٌ مطلةٌ على البحر، ولها موانئ تجارية مهمة «بورسعيد، جدة، ينبع، البصرة، دبي، البحرين، الكويت»، كما قد يعود الأمر من جانبٍ آخر إلى شُحّ المواد الأصلية التي كانت تُصنع منها الآلة في الموطن الأصليّ للفن.
2. تطور آلات الإيقاع في فن «النوبان»: هناك ثلاثة أنواع من الطبول المُستخدمة في فن «النوبان» في الإمارات، تُسمّى «الراس»، و«الوسط»، و«امجينبُوَّه»، وتتميّز هذه الطبول بأنها تُغطّى بالجلد من جانبٍ واحدٍ فقط، ويبقى الجانبُ الآخر مفتوحاً، «وكان العزفُ على هذه الطبول قديماً يختلف عنه الآن، حيث كانت تُدفن في الرمل من الجانب غير المُغطى بالجلد منها؛ من أجل أن يكون صوتها (مكنون)، كما يُقال في هذا الفن؛ أي غير ظاهر بصورة قوية، وذلك لكي يتناسب وصوت آلة الطنبورة، أما الآن فلم تعد الطبول تُدفنُ في الرمل في الغالب؛ بل توضعُ لها قواعد، أو تكون مغلقة بالجلد من الجانبيْن». إن السببَ الرئيس في تغيير صناعة هذه الطبول – حسب ملاحظتي الخاصة – يعود إلى التغيير الحَضَريّ الذي شهدته الإمارات خلال الخمسين عاماً الماضية، فحين كانت ساحات المُدن الإماراتية في الماضي رمليّةً، كان تقليد دفن طبول «النوبان» مُتبعاً، بل كانت له وظيفةٌ موسيقيةٌ، كما علمنا من النقل السابق، ولكن حين أصبحت الساحات والميادين العامة التي يُؤدى فيها هذا الفن مرصوفةً بالأحجار الصناعية ونحوها «Interlock» تعذّر دفنُ تلك الطبول، ولمّا كان مُمارِسو هذا الفن بحاجةٍ إلى بقاء فنهم واستمراريّته، فاضطروا إلى إغلاق الجانب الفارغ من كل نوع من الطبول، إما بإضافة جلدٍ جديد، وإما بوضع قطعةٍ من الخشب الرفيع، لكنّ ذلك أثّرَ كثيراً في طبيعة تجسيد الإيقاع المصاحب لهذا الفن، إذ إن الصوت الصادر من تلك الطبول بعد إغلاقها من الجانبيْن أصبح عالياً جداً، وطاغياً على صوت الآلة الرئيسة «الطنبورة»؛ لذلك يطالب الكثير من الفنانين الشعبيين بتخصيص مساحاتٍ رمليةٍ في المهرجانات التراثية لأجل أداء الفنون الشعبية كما كانت عليه في الماضي، بما يضمنُ بقاءَ الأصالة حسب رأيهم.
3. تطور آلة «المنيور»: آلة «المنيور» هي «حزام عريض من الجلد أو القماش؛ يُعلقُ عليه الكثيرُ من ظلوف الماعز، ويُلبَسُ المنيور حولَ الخصر عند أداء (النوبان)؛ حيث يُصدِرُ صوتاً كصوت اهتزاز (الشخليلة)، عندما يهز لابسُها خصرَه مصاحباً آلة (الطنبورة) على إيقاع هذا الفن»[2]. إذن فالأصل في آلة «المنيور» استخدام أظافر أو أظلاف الماعز، ولكن حين جاء هذا الفن إلى سواحل الخليج العربيّ استُبدِلت الأظلاف بالقواقع البحرية، ولا يخفى ما في هذا التطوير من الأثر البيئيّ، كما استخدم بعضُهم فيما بعد أغطية زجاجات المشروبات الغازية التجارية التي وردت إلى الإمارات منذ أوائل الستينيات تقريباً، وقد رأيتُ بنفسي «منيوراً» بهذا الشكل في السبعينيات، لكن هذا التطوير لم يَدُم، وعاد استخدام أظلاف الماعز في هذه الصناعة، بسبب انتشار الوعي بأهمية الحفاظ على الحِرَف الشعبية كما كانت عليه.
4. انحسار مشاركة النساء للرجال في هذا الفن: فن «النوبان» هو أحد الفنون الشعبية الإماراتية القليلة التي يشترك في أدائها الراقص، النساءُ مع الرجال»[3]، وقد لاحظ الباحثُ أنه مع تطور المفاهيم الاجتماعية والثقافية أخذت هذه المشاركة في الانحسار تدريجياً، وتناقص عددُ النساء اللاتي يقبلن المشاركة.
5. تطوّر النصوص الأدبية في فن «النوبان»: كانت نصوص فن «النوبان» في الماضي البعيد مقتصرةً على النصوص النوبيةِ الأصلية، ولكن مع مرور الوقت وتغير الأذواق دخلت نصوصٌ متنوّعة إلى هذا الفن؛ ما خلقَ له وجهاً من التعدديةِ الثقافية.

1- السابق، ص 60.
1- السابق، ص 62 – 63.
1- من الفنون الإماراتية الأخرى ذات الأداء المُشترَك فن القِربة «الهبّان»، وفن الويليّة.

فنون الشحوح

علي العشر
خبير تراث فني

عزيزي القارئ، في هذا العدد سوف نتحدث عن نبذة من فنون الشحوح، حيث إن للشحوح فنوناً عدة، تختلف تماماً عن الفنون التي ذكرناها آنفاً، وذلك حسب البيئة التي يعايشونها، ولكن قبل أن نتكلم عن فنون الشحوح، يجب أن نعرف من هم الشحوح.

الشحوح هم قبائل عربية معروفة من دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث يعيشون في إمارة رأس الخيمة، وفي سلطنة عمان، ومقرهم الرئيس في رؤوس الجبال التي تطلّ على مضيق هرمز، الذي يمتد من جزيرة لارك شمالاً إلى جبل حبس جنوباً، ودبا شرقاً والدارة وشعم.

وتأكيداً على أصولهم العربية، وكما قال الشاعر الإماراتي إبراهيم محمد سليمان الخنزوري:

حنا الشحوح إذا قلنا فعلنا
طرانا التاريخ، وحنا بقدها
عيال مالك رمز البطولة
بطولات والناس تشهدها
بطنا دوس من صلب زهران
معزة أزد العرب قحطان
من السراة خرجنا للمعزة
وفي رؤوس الجبال سكناها

ومن بعد هذا، فإننا سوف نرجع إلى محورنا الأساسي، وهو فنون الشحوح، فللشحوح فنون عديدة، سوف نقوم بذكر بعضها، وبتعريف بسيط عنها، وهي كالآتي:

1. رزيف الشحوح:

هو فن من الفنون الشعبية، تنفرد به دولة الإمارات العربية المتحدة، وبالتحديد إمارة رأس الخيمة، عن دول الخليج، حيث يدخل هذا الفن الغزل والمدح والحربي.

تتكوّن الفرقة من عدد 50 إلى 70 رجلاً، ويترأس المجموعة شخص متمكن في هذا الفن وتفاصيله، ويسمى الأبو، وهو المسؤول الأول عنهم، ويصطحب هذا الفن طبولاً كبيرة وخيازرين في أيادي المجموعة.

طريقة أداء هذا الفن تكون المجموعة صفين متقابلين ومتزاويين، يتمايلون حسب النغمات الغنائية يميناً ويساراً وقليلاً إلى الأمام، ويكون الانحناء والتمايل بالتناوب بين الصفين، يتوسطهما حاملو الطبول، حيث يراوح عددهم بين 5 و8، كما يتوسط الصفين لاعبو السيوف وضاربو البنادق، ويستخدم هذا الفن في الأعياد والحفلات الرسمية والأعراس.

ومن قصائد هذا الفن ما يلي:

يا بريق الرحمن منشور حواليه
حي الله بالموت ورب معاليه
تم بالخور طايح من ضرب الخناجر
والريال ما يجفي ما يحاتي الفضايح
بنصعد الحاير بنزور الخصيم
نعمل الشور حاجه الزمان
لبيك يوم صايحنا
نحرب خصيمنا علينا
حن السيف بالوادي
عبدالله بن رويح
يا امات عشر بالضرب حاشر
فالمبعد ما فيها مدمّه
يوم حي الله أفعال الميازر
يوم الخصيم يسيل دمه
قلبي طلب سنع المشرخ
والمعتدي زابد ونينه
حس الكند سوّت ونينه
ترعد على راس الجبالي
يا عصبتي يا اعيال عمي
يا مسندي عند القبايل
في المجالس خالد وصل البر
انقلوا صياح دمنا ودم الخصيم
يا ناس الكوس في غباره
البسطي ضيع سنياره
باروت مروح الشام
والرصاص ما يصيبونَ
يا سيف سيافي على سيف الماشي
ضربوا المدافع طيروا البنادير

النخلة... شجرة الحياة (1)

علي أحمد المغني
باحث في التراث الثقافي

لم تحظ شجرة بالتقدير والاهتمام في مختلف الحضارات والثقافات مثل شجرة النخلة، فهي الشجرة المباركة، وهي شجرة الحياة، والشجرة الطيبة، وهي الشجرة الوحيدة من بين الأشجار التي لا يتساقط ورقها، والنخلة تشترك مع الإنسان في الخير والعطاء والبركة، وحتى في الموت، فالنخلة تموت عند قطع رأسها.

تُعرف شجرة النخيل في اللغة العربية باسم النخلة، فقد ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي وغيرهما «النخل»، فقالوا: «إنها شجرة التمر، وجمعها نخل ونخيل ونخلات»، وقيل إن الاسم مأخوذ من نخل المنخل، وانتخل الشيء؛ أي اختاره.

ويعد العالم النباتي (يتوفر إستوس) (287 ـ 372 ق.م)، أول من عرّف النخلة في التقسيم العلمي الذي وصفه للفصائل النباتية، ونخلة التمر تنتمي إلى عائلة النخليات Palmae، ومن فصيلة الفينيكس من نوع الداكتلفيرا (Phoenix dactylifera)، وتعد النخلة من أقدم المزروعات التي عرفها الإنسان، وعلى الأرجح أنها عرفت منذ نحو 7000 سنة أو قبل هذا التاريخ، وأقدم ما عُرف عن النخل كان في بابل، التي يمتد عمرها إلى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، ولا يستبعد أن يكون النخل معروفاً قبل هذا التاريخ. ويعتقد أن موطنه شبه الجزيرة العربية والعراق والبحرين وشمال إفريقيا، ومنها انتشر إلى بقية أنحاء العالم.

وعكست صفات النخلة المتعددة التقاء الشعوب والأديان والحضارات في احترامها، على نحوٍ لم يتكرر مع أيٍّ من نباتات الأرض، فقد مجدتها الأديان كافة، ففي الإسلام رفع الله قيمة النخلة ووضعها بثمارها المباركة في مكانة خاصة بين بقية الأشجار، وذكرها في العديد من السور في القرآن الكريم، ومنها الأنعام والكهف وطه والقمر والرحمن والحاقة، وجعلها من ثمار الجنة أسوة بالتين والزيتون والرمان والعنب، قال تعالى: {والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ}. (سورة ق، الآية 10). وكذلك ذكر النخل في الحديث النبوي الشريف في الكثير من المواضع، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «بيت ليس فيه تمر جياع أهله»، وروي عنه - صلى الله عليه وسلم -: «من أفطر بشق من التمر كفاه الله شر ذلك اليوم»، وفي رواية البخاري: «من تصبَّح بسبع تمرات، لم يضره ذلك اليوم سمّ ولا سحر».

وكان للنخلة عند اليهودية حظ وافر، حيث يعد التمر من الثمار السبع المقدسة، وقد أطلق اليهود على بناتهم اسم اللفظة العبرية «تامارا»؛ أي النخل والتمر معاً، وذلك اعتقاداً منهم بأن من يُطلق عليها هذا الاسم من بناتهم ستكون جميلة القوام، وخصبة وممشوقة كالنخلة صاحبة التمرة الحلوة، وفي «العهد القديم» تظهر النخلة من حين لآخر كرمز للتقوى والصلاح، وجاء في الترنيمة المقدمة 92:12 «إن الصالح سوف يزدهر مثل شجرة النخيل».

وفي الديانة المسيحية، فقد ولد السيد المسيح تحتها، وعندما شعرت السيدة مريم بآلام الوضع ألهمها الله أن تجلس إلى جذع هذه النخلة، وهو كما ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً}، (سورة مريم، الآية 25)، وتقول كتب التاريخ إن أهل القدس قد استقبلوا نبي الله عيسى بن مريم، وهم يحملون باقات من الزهور يتوسطها التمر، وأنهم قد فرشوا الأرض تحت قدميه ببساط أخضر جميل من سعف النخيل عندما دخل بيت المقدس. وفي يوم الأحد للغصون، يمسك المسيحيون سعف النخيل؛ كي يعيدوا التذكير بدخول المسيح المظفر إلى القدس.

وجاء في كتاب «الخلق» للديانة الزرداشتية القديمة في بلاد فارس في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، أنه خلافاً لشجرة «الجوكارن» الأسطورية، (وهي شجرة اشتهرت بمقدرتها على إعادة الموق إلى الحياة)، فإن «شجرة النخيل تساوي جميع النباتات الموجودة بين السماء والأرض».

ونصوص الديانة المندائية من بين نصوص الأديان التي حفظت القيمة للنخل شجراً وثمراً، فالنخلة ترد في الأدب المندائي بتسميتين: الأولى «تالا»، وهي مفردة مشتركة في عائلة اللغة الآرامية، أما المفردة الأكثر شيوعاً وتميزاً، فهي «سندركا»، ويقترن استخدام كلمة «سندركا» بالإشارة إلى معنى الفحولة، ورمزاً لها، إذ يرتبط ورود الكلمة في النصوص مقروناً بكلمة «أين» التي تعني العين والنبع، كما أنها إشارة إلى الأنوثة. ويكون في تعبير «أين وسندركا» ما يفيد معنى الأنوثة والذكورة، وتعبير عن المرأة والرجل. وتتجسد قدسية النخلة في الديانة المندائية في «عيد الفل» الذي يصادف في شهر أكتوبر من كل عام، حيث يعتقد الصابئة المندائيون أن شجرة النخيل من بين أول الأشجار التي خلقت، وقبل يوم العيد يهيئون كمية من التمر المعزول من النوى، ويضاف إليه السمسم المحمر على النار، ثم تضاف إليه بعض الحبوب المعطرة، ويمزج الخليط جيداً، ثم يعملون منه كرات صغيرة أو ضفائر يأكل منها كل أفراد العائلة.

ويصف الآشوريون والبابليون والسومريون في مخطوطاتهم شجرة النخيل بأنها «الملك - الإله»، و«شجرة الوفرة»، و«شجرة الثروات»، و«شجرة الحلوى» و«الابن الأكبر للعالم السفلي»، واعتبروها شجرة الحياة التي يناطح سعفها السماء، وتتعمق جذورها في أغوار الأرض. وزينت صور النخلة معابد بابل ومداخل المدن وعروش الملوك. وكان البابليون يستحضرون شراباً من نسغ النخلة، يسمى «شراب الحياة».

وتكرر ذكرها في قانون حمورابي، فقد اختصت المادتان الرابعة والستون والخامسة والستون في تلقيح النخل، فتنص الأولى على أنه: إذا عهد مالك إلى فلاح تلقيح نخيل بستانه والعناية بها، فعليه أن يسلّم ثلثي الحاصل إلى صاحب البستان، ويأخذ لنفسه الثلث. وأما المادة الثانية، فتنص على أنه: إذا أهمل الفلاح تلقيح النخل، وسبب نقصاً في المحصول، فعليه أن يؤدي إيجار البستان أسوة بالبساتين المجاورة.

وقد صورت النخلة وسعفها وجذعها على عدد كبير من الأختام المكتشفة في منطقة الخليج العربي، التي تعود إلى حضارتي دلمون وماجان.

كذلك وجدت نخيل التمر مغروسة بمصر في عصور ما قبل التاريخ، وهي في ذلك شبيهة بوادي الرافدين، فالاسم الهيروغليفي للتمر هو «بنراو بنرت» BNR وBNRT، ومعناه «الحلاوة». وهذه التسمية قديمة تنفرد بها اللغة الهيروغليفية، مما يدل على قدم توطن النخل في مصر، فقد عثر في مقبرة بجهة الرزيقات، قرب أرمنت، على مومياء من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة في حصير من سعف النخل، كما عثر على نخلة صغيرة كاملة في إحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى (نحو 3200 ق.م)، وقد استعان المصريون في عمل سقوف منازلهم ومقابرهم المصنوعة من اللبن بجذوع النخل من عصر ما قبل الأسرات.

ويقال إن الفينيقيين القدماء كانوا يعبدون عشتاروت على شكل نخلة، تسمى في التوراة «اشميرا»؛ أي السارية.

ولقد اعتقد عرب الجاهلية بأن النخلة تكمن فيها قوى روحية، وقد عبد العرب نخلة بعينها، هي نخلة نجران الطويلة، التي خُصص لها عيد في كل سنة.

وكانت النخلة عند الرومان تُحمل في المواكب الاحتفالية للانتصارات العسكرية، فهي رمز النصر العسكري، وكانت تعطى أيضاً للمصارع المنتصر، وعند قبائل ديدا في ساحل العاج ترمز سعفة النخيل إلى الصياد، فعندما يموت ولا يجدون جسده، يدفنون سعفة شجرة النخيل بدلاً منه.

ومما لا شك فيه أنه توجد الكثير من الإشارات إلى أن النخلة عُرفت في ثقافات وأماكن مختلفة، مما لا يسعني ذكره في هذه المساحة، وفي العدد القادم سأتناول حضور النخلة في التراث الثقافي الإماراتي.

القهوة
والتواصل بين الواقع والخيال

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

تعدّ القهوة من أهم شواهد الصداقة والمحبة في العالم، فهي، ربما، أكثر من تشهد على أول عقد رسمي يوقّع بين الأصدقاء أو الجيران أو المحبين، فنجدها حاضرة في لقاء التعارف الأولي بين الأطراف، وتهيئ لهم أرضية التواصل الفكري، مهما اختلفت بيئاتهم وخلفياتهم، ومن هذا المنطلق، فإننا نحتاج إلى الاهتمام بدراسة القهوة على جميع الآفاق والأبعاد والصعد. فبغض النظر عن حضور القهوة العربية الأصيلة في وجداننا وإحساسنا، والتصاقها بذاكرتنا، لما لها من حضور فاعل في حياتنا اليومية، فإن هذا الحضور لم يعد خاصاً بالجزيرة العربية، بل امتد ليشمل العالم بأكمله في تنوّع كبير، فالقهوة في الشام ومصر والمغرب العربي تختلف عن القهوة في شبه الجزيرة العربية، وكذلك القهوة

في قارات العالم المختلفة؛ لذلك أصبحت القهوة اليوم عاملاً مشتركاً بين الشعوب بشكل أو بآخر. ولما يحتاج التواصل بيننا وبين الآخر إلى إيجاد عناصر مشتركة، فإن القهوة تعد وسيلة مناسبة في ارتباطنا بأغلب الشعوب والثقافات، وحتى أولئك الذين لا يعرفون عن القهوة شيئاً، فإن من السهل علينا أن نصدّر لهم ثقافتنا، من خلال عنصر تراثي مهم، ألا وهو القهوة، وبكل يسر وسهولة ولأسباب عدة، نذكر أهمها:

- أن القهوة أولاً عربية المنشأ، وبما أن منشأها، كما يزعم أغلب الباحثين، هو الجزيرة العربية، فإن أهمية القهوة تتضاعف، كوننا نتحدث عنها كجهة أصيلة، ولسنا دخلاء عليها، كما أغلب شعوب العالم.
- وأما ثانياً، فإن القهوة لا تحتاج إلى ترجمة أو شرح، فهي منتشرة في جميع دول العالم، وتتناولها الشعوب وبصفة يومية، بعكس عناصر كثيرة من التراث المحلي التي تكون عصية على الفهم، وتحتاج إلى شرح مفصّل لاستيعابها من قبل الأفراد من الثقافات الأخرى.
- وأخيراً، فإن القهوة تمتاز بارتباطها الوثيق بحواس الإنسان الخمس، ففي تذوقها ورائحتها وحراراتها أبعاد مهمة لانطباع إيجابي في ذاكرة الآخرين، وشعورهم بالسعادة، وكذلك في آدابها وطريقة تحضيرها أثر مهم في بقية الحواس، وهي إجمالاً تستطيع أن تفتح أمام جميع من يتناولها باب الولوج إلى فهم واستيعاب أبعاد الكرم والتسامح والمحبة التي تؤطر تراثنا وثقافتنا.

لذا يجب الاهتمام بإدراج القهوة في منافذ دخول الدولة، أو في أماكن السياحية والفنادق والمتنزهات، وأماكن الراحة كالمطاعم والأسواق؛ لأنها ستكون بمثابة رسالة ملؤها الإيجابية والسعادة والنشاط، مغلفة بتراث الإمارات إلى العالم بكل سهولة وفعالية، وهذا ما يميز القهوة عن بقية مفردات تراثنا المهمة.

القهوة ملتقى الحواس الخمس

ليست القهوة المرة محركة لحاسة التذوق فقط، وليس تأثيرها بسبب مرارتها التي نحتاجها في عصر كثر فيه تذوق الأطعمة والمشروبات الحلوة في حياتنا اليومية، وإنما هو أثر القهوة في جميع حواسنا، فحاسة السمع قد تتأثر قبل أن نتذوق القهوة، ففي صوت دق حبوب القهوة في المنحاز بالرشاد أثر لتذكر رائحة القهوة وطعمها، وكذلك صوت اهتزاز الفناجين، واحتكاك الدلة النحاسية بها، إيذان بقرب الاستمتاع بهذا المشروب السحري، وصوت صب القهوة في الفنجان إشارة إلى حلول وقت ارتشافها، واكتشاف سحرها الذي لم يستطع التعوّد إبطال مفعولها.

وكذلك فإن حاسة اللمس، بدءاً من الإحساس بحرارة الفنجان حينما نمسك به، حتى وصول هذه الحرارة إلى ألسنتنا، أثر واضح في هذه الحاسة، وكذلك فإن أثر القهوة في حاسة النظر مهم وجلي، كون منظر الفناجين والدلة وحتى المعاميل مجملاً، تعبّر عن حضور القهوة حتى قبل إعدادها، وفي عصرنا الحالي، وبعد انتشار وسائل التصوير، نلاحظ كيف أن الناس أصبحوا يصورون مشروباتهم ومأكولاتهم قبل تناولها، وهذا أصدق دليل على الحضور المهم للشكل المنظور وارتباطه بحاسة التذوق. وقد تكون حاسة الشمّ من أهم الحواس المرتبطة بالقهوة، فرائحة القناد من القرنفل والهيل والزعفران التي تعرف بها القهوة العربية، لها مفعول انتعاشي قبل شرب القهوة، وبما أن مفعول الكافيين يأتي متأخراً، وبما أن طعم القهوة المرة قد لا يستسيغه كثير من الناس، فإن طعم ورائحة هذه الأعشاب العطرية مهم للغاية، وليس أدل على ذلك إلا هذا البيت:

القهوة اللي ما تْقنّد من الهيل
شروى العجوز اللي خبيثٍ نسمها

لا أتذكر منذ متى وأنا أسمع هذا البيت الذي أصبح مثلاً يتداول في المجالس، حينما تقدّم قهوة خالية من الهيل؛ لذلك تشبه بالعجوز التي لا تهتم بنفسها، وأصبحت رائحتها مصدر اشمئزاز بدل أن تكون رائحتها تذكر بالأم أو بالجدة أو بالماضي الجميل الذي يعشق الناس شم رائحته؛ وهذا أيضاً إشارة إلى وجود ذاكرة للرائحة، كما تشير الدراسات العلمية اليوم، وأشارت إليها الآية القرآنية «إني لأجد ريح يوسف»، ولما للذاكرة من أهمية في التواصل، فإن للقهوة أثراً مهماً ومعززاً في ذلك أيضاً.

لذلك سنتطرق الآن إلى موضوع: «أهمية القهوة في تعزيز التواصل من خلال تجلياتها في الشعر النبطي»، ولكني قبل ذلك سنشرح لماذا هناك تواصل بيننا وبين القهوة بطريقة لا شعورية.

القهوة رمز للسعادة

ربما تكون نظرية «الاستجابة الشرطية» المعروفة للعالم الروسي بافلوف مصداقاً مهماً للبدء بربط القهوة بذلك، بعد تخزين الروائح في الذاكرة، فأرشفة الروائح في المخ، إنما هي وسيلة تواصل بين الإنسان والقهوة، ولكن ارتباط شرب القهوة بالطاقة والإيجابية من ناحية، وارتباط شرب القهوة بالتواصل مع الأصدقاء والأحباب، أديا إلى أن يكون الشعور بالسعادة شرطاً من نتائج شرب القهوة، فكما هي الاستجابة الشرطية في تجربة بافلوف تجمع بين سيلان لعاب كلبه وسماع صوت الجرس، لارتباط صوت الجرس بحلول موعد الأكل، نجد أن الإنسان يربط كثيراً من هذه اللحظات السعيدة باحتساء فنجان من القهوة، وعليه فإن القهوة تنتقل من كونها رمزاً تراثياً جامداً إلى رمز تراثي حيّ لمجمل ما أشرنا إليه آنفاً، ونشير من خلال القصيدة التراثية التالية إلى سعادة الناس برؤيتهم النشامى والفرسان، باستقبالهم بفناجين القهوة؛ لأنهم يستحقون احتساء هذا المشروب الذي يعبر عن تقديرهم للدور الكبير الذي قاموا به:

يلا تصبوا هالقهوة وزيدوها هيل
واسقوها للنشامى ع ظهور الخيل

والنشامى نلاقيها ونحييها
ويلك يلي تعاديها يا ويلك ويل

قهوتنا للأجوادي أول بادي
للي ناره وقادي بظلام الليل

والقهوه السمرا ع الكيف لرجل السيف
لرجال اللا حسوا بالحيف شالوا له شيل

القهوة رمز التواصل مع القصيدة

تعودنا أن نجد أغلب الشعراء في عزلة عن الواقع في تأملات فكرية وعاطفية، وطالما كان النقاد يسألون عن الحزن الذي يحرّك قريحة الشعراء، بينما لا نجد للأفراح تلك التأثير في تحريك قرائحهم، وقد يعود ذلك إلى آلية تعبير الإنسان في أوقات الفرح، حيث تكون غالباً بالحركة والصراخ. بينما تكون آلية تعبير الإنسان في أوقات الحزن شفهياً بالكلمات المعبرة وأقل تعبيراً بالحركة. وتأتي القهوة في هذا السياق لتنتشل الشاعر من حزنه وتشعره بالإيجابية، وقد نجحت في ذلك في كثير من الأحيان؛ لذا نجد الشاعر أصبح ينادي القهوة لتحريك قريحته، كما نلاحظ في الأبيات التالية للشاعر عيسى المهري:

صُبّي من الثجّاج يا دلّة الكيل
هاتي القوافي كلّها والجزالة
طاب الفكر.. وطاب دير الفناجيل
وطاب المبايَع للسّمو والجلاله

فالشاعر حينما وجد القصيدة عصيّة، وكان يحتاج إلى مخرج للتعبير عن سعادته، نجد أنه استعار القهوة لكي يحرّك هذه القريحة، فمن ناحية يرى في القهوة مصدر طاقة ونشاط وتحفيز للفكر في سبيل إنشاد القصيدة، ومن ناحية أخرى فإن القهوة كانت مدخلاً مهماً لإضفاء أجواء السعادة والإيجابية، كما هي في واقع الأمر؛ لذلك جاءت الاستعارة معبرة وفي محلها.

وللقهوة ومعامليها إمكانات تصويرية كثيرة، استعار الشعراء كثيراً منها للتعبير، وأعرض هنا قصة بنت تزوجت رجلاً عاجزاً أو عقيماً، وكانت الزوجة محتارة في كيفية هذا المعنى الصعب، ولكن حينما زارها أخوها بعد ثماني سنوات، استعانت بالشعر، واستعارت من إعداد القهوة صوراً للتعبير عن هذا الموضوع الشائك، فقالت لأخيها إنها تريد أن تسمعه أبياتاً من الشعر كي يحكم على شاعريتها، فكانت الأبيات الآتية:

وش قلت في رجلٍ شرى له معاميل
وقد له ثمان سنين ما دق فيها
إما يسويها شرات الرجاجيل
وإما يخليها لمن يعتنيها
ما تنفع القهوه فبيض الفناجيل
إلا لمن يحرق البن فيها

وعندما سمع الزوج هذه الأبيات، أدرك أن زوجته التي

تزوجها طفلة صغيرة، تدرك كل الأمور الزوجية، وأن السنين التي كانت بينهما لم تكن خالية من المعاناة، لذلك أذن لها بالعودة مع أخيها، وفك رباط الزوجية، لتأخذ فرصتها في الارتباط برجل آخر. وهذه الأبيات تشير إلى براعة الشاعر في التعبير من خلال استعارة التصاوير من عالم القهوة المتكاملة عناصره من نواح كثيرة.

وربما يكون البيت الذي أورده الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان الأول في استغنائه عن المحبوب دليلاً على وقع هذه التصاوير، حيث إن هذا البيت الخالد أصبح ملتصقاً في أذهان كل متذوقي الشعر الإماراتي الأصيل، والقصيدة المعروفة هي:

إلا السلام يرد ويعاد
وإلا المودة مضمحلة

إلى أن يقول:

لأول تساوي ملك بغداد
والشام وارض عمان كله
واليوم ما تسوى لك قناد
لي ينحذف من راس دله
غيرك سكن في لب الفواد
استملكه والعقل شله

فتشبيه المحبوب بالذي فقد أهميته كالقناد الذي يفقد أهميته، سواء بقي في قاع الدلة أو اجتمع في رأس الدلة لغرض تصفية القهوة حين يسقي المقهوي، للدلالة على براعة الشاعر تصوير حاله وهو في وئام مع المحبوب، وحاله بعد أن اكتشف حقيقته، ففي البدء يحيي المحبوب حال المحب، كما تنعش الإضافات العطرية من القناد كالزعفران والهيل و... وفي النهاية تصبح هذه الخلطة لا فائدة ترجى منها، إن لم تمتزج مع القهوة دلالة على انسجام المحب مع محبوبه، فالقهوة رمز التواصل، كما نريد أن نؤكد على ذلك في هذا المقال، ولذلك سنعرج على بعد التواصل العام مع الآخرين، وبعد التواصل الخاص مع المحبوب استدلالاً على ذلك.

القهوة رمز التواصل مع الآخر

ولم تكن علاقة الشاعر بالقهوة علاقة ثنائية، إنما كانت القهوة، كما أشرنا، وسيلة لإخراج الشاعر من عزلته، كون ارتشاف القهوة دون وجود الأهل أو الأصحاب أو الأحباب

ليس لها المذاق المطلوب، وهنا نجد الشاعر أحمد الكندي يريد أن يخرج من وحدته في الصحراء طالباً ضيوفاً يشاركونه ارتشاف القهوة:

عشقت البر والأطيار
واخيّم في مفاليها
واقَيّل في ظليل اشجار
أحَمس البن واقليها
واصبّه للرجال احرار
يلي برزوا حواليها

فالقهوة، إذن، رمز التواصل مع الآخر، كون الإنسان يأنس بأخيه الإنسان، ويحتاج إلى التواصل معه؛ ليكون في مجتمع مترابط من ناحية، وكذلك مجتمع منفتح على الآخر، حيث إن الدلة تدل على الكرم، فكما يقول المثل:

البيت اللي ما فيه دلّة محد يدلّه

لذلك، فإن أحمد الكندي لا يعني بالرجال أصدقاءه، وإنما يقصد كل الرجال الذين سيمرون وسيستضيفهم؛ لأنه يحتاج إلى هذا التواصل مع القريب والغريب، كي يحسّ بالترابط والتسامح بين مختلف البشر. وهذا النوع من التواصل مدمن، كما هو إدمان القهوة، فنجد المستضيف لا يستطيع الاستغناء عن الضيف، لما يشعر به من نشوة في إبداء مظاهر الكرم والمحبة، ولعل الأبيات المعروفة الآتية للشاعر مشاري بن ربيعان تكون أفضل مصداق على ذلك:

ياما حلا الفنجال مع سيحة البال
في مجلسٍ مافيه نفسٍ ثقيله
هذا وَلَد عَمٍّ وهذا وَلَد خال
وهذا رفيقٍ ما لقينا بديله

فالقهوة رمز من رموز الكرم وحسن التواصل، وفيها يقول الشاعر علي بن بخيت العميمي باهتمام وعناية، مشدداً على المحافظة على التراث:

يا القهوة لك قايم بشف
يا تراثنا من عصر لجدود
لاني على شانك مكلّف
مرضاة لاجل صخيف العود
اللي بوصلهم آتشرف
وقدره عن الباقين مفنود
قال «لقهوة» بالمدح توصف
لها احترام السمت موجود
في برزة الحكّام تهرف
أهل الشرف وافين لعهود
يوم ابرزوا وتكمّل الصف
بها كبير السن مقصود
عادة وللضيفان تنزف
وفي ملازمتها مدخن العود
يشهد لها الفنجان ما حف
حق الرجال وبرزة الخود

وفي هذه القصيدة تعابير مهمة على أهمية القهوة، ومكانتها في المجتمع الإماراتي، من خلال مدح المجالس التي تهتم بهذا العنصر التراثي، إلى جانب عناصر التراث الأخرى تعبيراً عن الكرم وحب التواصل مع الآخر، فيقول الشاعر عتيق بن روضة الظاهري:

نصيت من بالجود مطراي كريم ما يحاتي المخاسير
لي مجلسه للضيف مبناي أَحْدٍ يجيه وْأَحْدٍ يسير
مفروش كلّه زَل محظاي والبيت يحظونه بشاكير
والبن فوق النار مقلاي بالهيل يتخدّر تِخَدِّير

القهوة رمز التواصل مع المحبوب

أشرنا آنفاً إلى أثر القهوة في زيادة النشاط والإحساس بالإيجابية، وهي أبواب واسعة للشعور بالسعادة، وهذا ما قد يكون عاملاً مشتركاً بين القهوة والمحبوب، فكلاهما مصدر لهذا الإحساس، وعليه فإن البيتين الآتيين يلتقي فيهما المحبوب والقهوة، ما يسبب في استفزاز الشاعر، فيقول:

يا لِقهَوَه بتشارَع وْياك
لو يستوي مَنّك بعِشرين

يا ما حلاة الرّيم تقلاك
ويا زين صَبّك في الفناجين

فالمحب يشتكي موانع ارتباطه بالمحبوب حسب الشريعة، فالزواج له تكاليفه الباهظة في كل زمن، بينما القهوة لا يوجد أمامها أي مانع، وتلتقي بالمحبوب كل يوم، وتلثم فاهه دون أي رباط شرعي، وهذه الصورة دعت إلى أن يطلب المحب مقاضاة القهوة، بسبب كثرة غيرته على المحبوب، وأمله في تحقق أمانيه في أقرب فرصة. وفي هذا المقال لا أجد أجمل من قصيدة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حينما يطلب مضاعفة سعادته، وهو بقرب المحبوب، فسعادة وصل المحبوب مضافاً إليها متعة ارتشاف القهوة من يمناه، ومن إعداده، يجعل الالتقاء به من أجمل الأوقات:

يا محتوي حسنات لاخصال
أطباع وسلوكٍ لطيفة
قم سوّ لي م البن فنجال
وضيف الذي تبغي تضيفه

والملاحظ أن الشاعر الذي يحب القهوة البسيطة، أصبح متقبلاً للقهوة بمختلف الإضافات، كما يقول «وضيف الذي تبغي تضيفه»؛ لأنها ليست قهوة عادية تتألق بقنادها، وإنما هي قهوة استثنائية؛ لأنها من إعداد المحبوب الذي أمزجه بالاهتمام والمحبة وغلفه بابتسامة انطبعت في مخيلة الشاعر، فعبر عنها في البيتين الأخيرين:

يا نور عيني ما لك أمثال
وما لي أنا دونك نكيفه
رؤياك تفرج ضيجة البال
وبسمة ثناياك الخفيفة

خلاصة القول إن هذه العجالة لا تكفي لتحيط بتجليات القهوة، وأثرها في التواصل في عالم الواقعي، ولا في العالم الخيالي الذي يرسمه الشعراء، ولكن التجول في عالم القهوة له نكهته الخاصة التي قد تأخذك برشفة بسيطة إلى آفاق بعيدة من راحة المزاج والاستجمام.

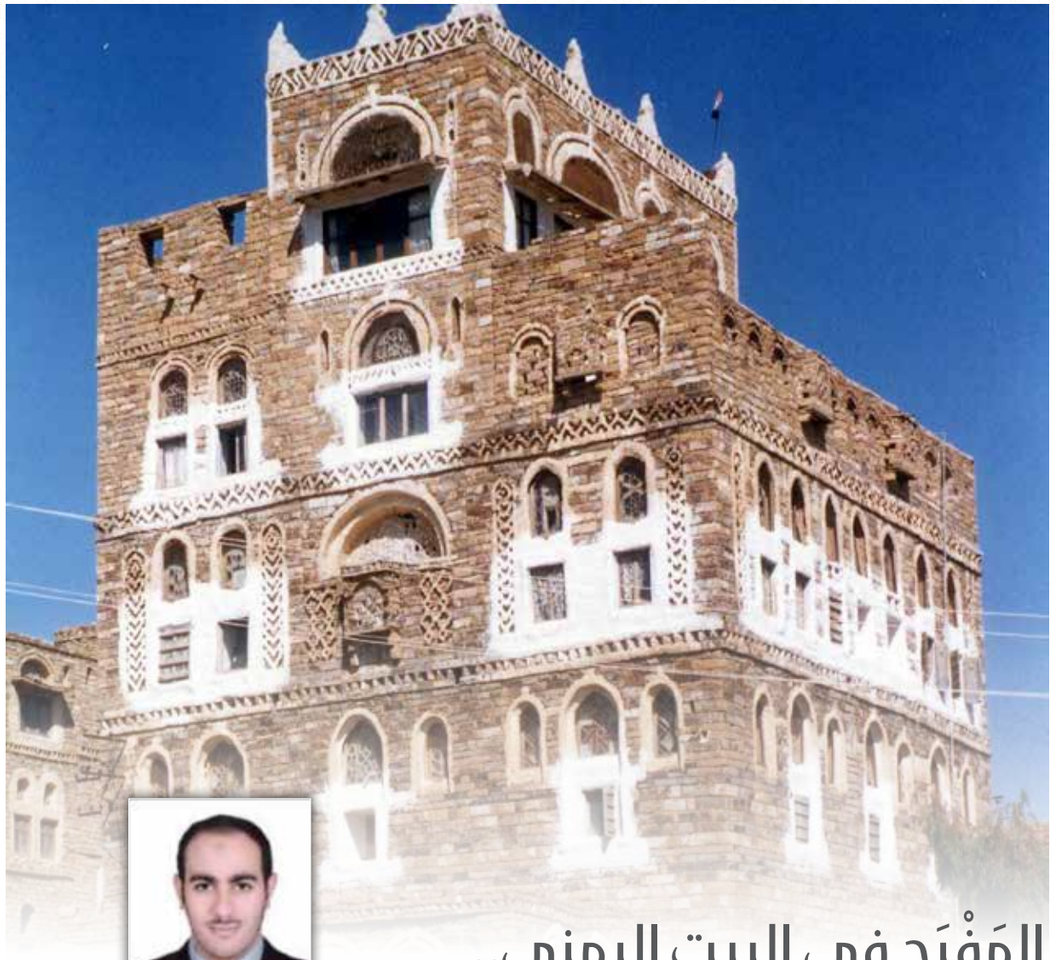

المَفْرَج في البيت اليمني..
فكر إبداعي وموروث حضاري

أ.م.د/ محمد أحمد عنب
أستاذ الآثار الإسلامية المساعد
بكلية الآثار – مصر

تعدّ اليمن حاضرة الثقافة والفن والجمال والتاريخ، وقد اشتهرت العمارة اليمنية بأصالتها وعراقتها منذ القدم، وتميّز المعمار اليمني بمهاراته وإبداعه الفني والهندسي في البناء والتصميم؛ فقد كيّف الإنسان اليمني الطبيعة لخدمته، بل زادها جمالاً وإبداعاً بحسّه المرهف الجميل، الذي جعل من اليمن متحفاً للعمارة الجميلة والعجيبة التي حيّرت العلماء في دقتها ومتانتها وجمالها، وتمثّل البيوت اليمنية أنموذجاً فريداً يعكس الموروث الثقافي والحضاري لليمن،

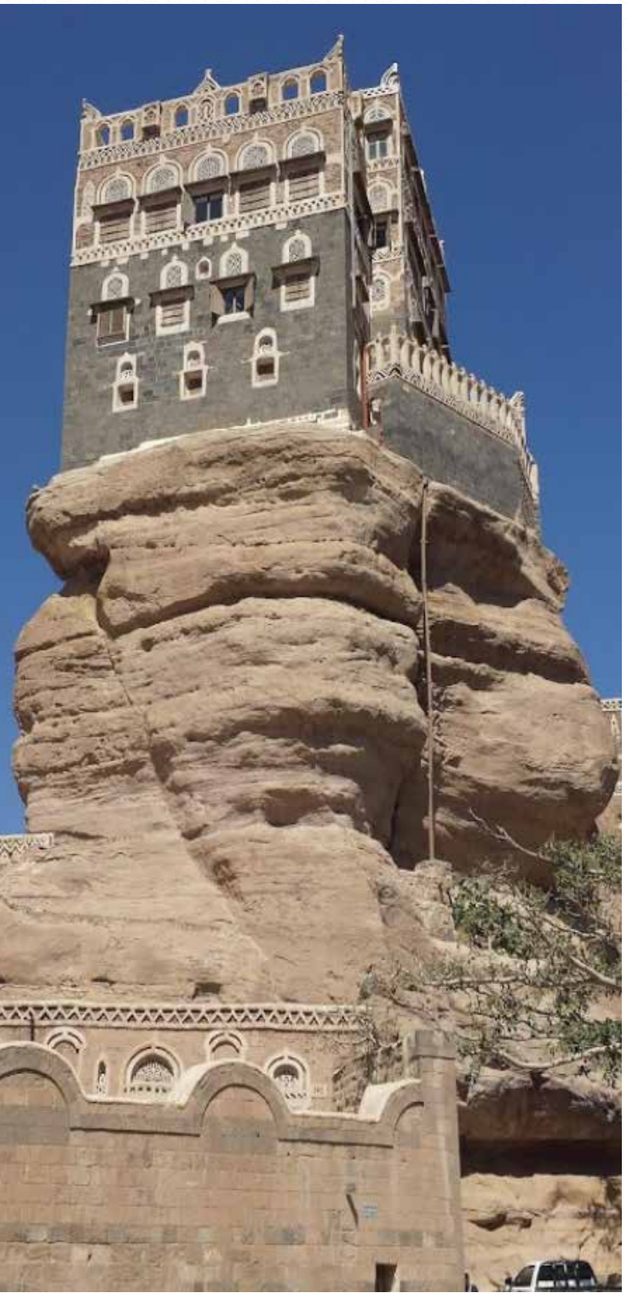

فقد جاءت هذه البيوت معبّرة عن حالة معمارية خاصة، وتعكس طابعاً روحانياً فريداً، يتمثل في ارتفاعها الشاهق إلى السماء، في سيموفينية وتناغم رائع ما بين السماء والأرض، الأمر الذي دفع الكثير من الرّحالة والمستشرقين لينسبوا بناء أول ناطحات سحاب في العالم إلى اليمن، وتعدّ غرفة المَفْرَج أعلى وأهم جزء في البيت اليمني، وتتميّز بزخارفها وأثاثها اليمني الفريد.

تعريف المَفْرَج لغة واصطلاحاً:

مصطلح المَفْرَج أصله في اللغة من كلمة (الفرجة)؛ وتعني المشاهدة والملاحظة، ويعكس المعنى اللغوي المعنى الاصطلاحي والدلالة الاستخدامية للكلمة بشكل كبير؛ فالمَفْرَج عنصر معماري، وفضاء معيشي، تميّزت به البيوت اليمنية القديمة، ويقع في أعلى طابق، ويشرف على أرجاء المدينة، مما يحقّق أكبر قدر من الخصوصية، ويكون مخصّصاً لجلوس الضيوف فيه؛ للاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية، من بساتين ومقاشم اليمن المختلفة، التي تبعث في النفس التفاؤل والراحة، وهذه الغرفة كانت موجودة في العمائر اليمنية القديمة، وخير مثال على ذلك قصر غمدان بصنعاء، الذي ذكره المؤرّخ اليمني الهمداني بأبيات شعرية بديعة، واصفاً هذه الغرفة التي عبّر عنها بمصطلح (المنظر) قائلاً:

من بعد غمدان المنيف وأهله	فهو الشفاء لقلب منْ يتفكر
يسمو إلى كبد السماء مصعداً	عشرين سقفاً سقفها لا يقصر
ينبوع عين لا يكدر شربها	وبرأسه من فوق ذلك منظر

موقع ووظيفة المَفْرَج:

تقع غرفة المَفْرَج في الطابق الأعلى من البيت اليمني، وتكون في الغالب في الجهة الجنوبية أو الجهة الجنوبية الشرقية، ويعكس موقع المَفْرَج في هذه الجهة خبرة المعمار اليمني، ومراعاته العوامل البيئية والمناخية في توزيع وحدات البيت اليمني المختلفة؛ فقد كان حريصاً على أنْ يجعل غرفة المَفْرَج وغرف النوم والاستقبال بشكل عام في هذه الجهة الجنوبية العدنية لدفئها، ولم يجعلها في الجهة

الشمالية أو الشرقية، والتي تكون باردة أيام الشتاء، وقد تعدّدت وظائف هذه الغرفة، فقد كانت مخصّصة كغرفة للاستقبال؛ حيث خصصت لاستقبال الضيوف الذين تربطهم بصاحب البيت علاقة وطيدة، كما أنها كانت مخصّصة كمجلس للاحتفالات المختلفة، بالإضافة إلى كونها مجالس للمقيل والقات المشهورة بها بلاد اليمن.

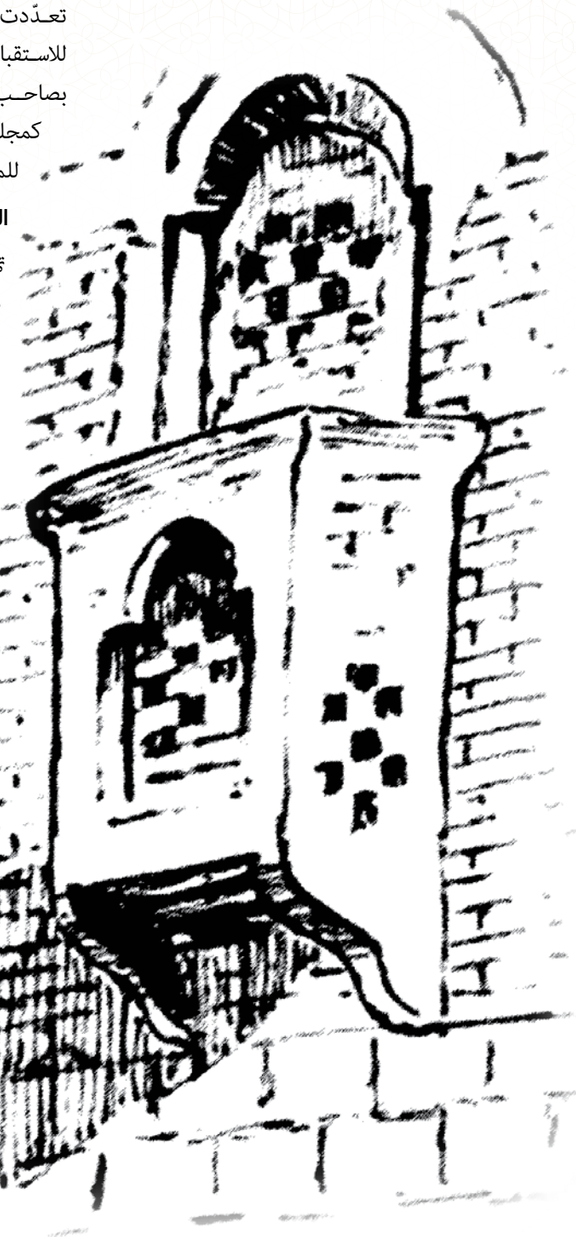

الوصف المعماري والزخرفي لغرفة المَفْرَج:

تمتاز غرفة المَفْرَج بأنها أكبر غرف البيت اليمني بعد غرفة الديوان، ويبلغ طولها عادة ستة أمتار، وعرضها أربعة أمتار، وتتسع لأكثر من عشرة إلى خمسة عشر شخصاً، وتتميّز بزخارفها وزيناتها المميّزة، وأشكال نوافذها الواسعة؛ ولغرفة المَفْرَج باب مكوّن من درفتين من خشب الطنب المزخرف بالزخارف الهندسية المتنوّعة، ويفتح في جدران الغرفة عدد من فتحات النوافذ الكبيرة المعقودة، التي تعرف باسم «الجرْف»؛ وقد راعى المعمار اليمني أنْ تكون هذه الفتحات في مستوى نظر الجالسين، بحيث تتيح لهم الاستمتاع والتأمل بالنظر إلى الطبيعة اليمنية الخلّابة، ويعلو هذه النوافذ عنصر القمريات؛ وتعدّ القمريات أحد العناصر الوظيفية والجمالية في العمارة اليمنية، وتكون على هيئة قرص دائري أو نصف دائري من الرخام المصقول الشفّاف المطعّم بالزجاج الملوّن، وهي تمثّل لوحات فنية غاية في الإبداع والجمال، وتكمن وظيفتها الأساسية في إدخال الضوء الطبيعي إلى داخل الغرف، وزيادة كفاءة العزل الحراري، وإضفاء صبغة جمالية على المبنى، سواء من الداخل أو الخارج.

كما يلحق بغرفة المَفْرَج مشربية تبرز إلى الخارج، تعرف بـ«بيت الشربة»، ووظيفتها تبريد المياه، وهي عبارة عن غرفة صغيرة تقع

في الجهة الشمالية، وتكون جدرانها مخرّمة من الجهات الثلاث بشكل هندسي؛ لكي تسمح بدخول الهواء وحركته، وتساعد التهوية على عملية البخر من السطوح المسامية، وبذلك تؤدي إلى التبريد المطلوب.

وهذه الغرفة مقسّمة من الداخل إلى أرفف خشبية، توضع عليها القدور والمدلات؛ والمدلات هي جرار المياه المصنوعة من الفخار.

وتزيّن جدران المَفْرَج بأبدع الزخارف والنقوش اليمنية التقليدية، المنفّذة بالجص لعناصر هندسية ونباتية وكتابية متنوّعة، مضمونها آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأبيات شعرية وأدعية مختلفة، كما يوجد بين كل نافذة وأخرى عند مستوى قاعدة العقد المحيط بكل نافذة، ويوجد في الزوايا رفوف من الجص مزيّنة بالنقوش المحفورة؛ توضع عليها الأدوات المختلفة التي تستعمل في الاحتفالات المختلفة، مثل الأطباق الخزفية الملوّنة والكؤوس وغيرها، كما يفتح في جدران المَفْرَج نوافذ أخرى صغيرة طولية للتهوية، وتوجد في منسوب عالٍ تعرف بـ«الشاقوص»، وتقوم هذه الشواقيص بدور بيئي مهم؛ حيث تعمل على فلترة الهواء وتنقيته، وإخراج الهواء الفاسد والأدخنة من الغرفة، وهي بهذا تؤدي دور المكيّف الطبيعي.

أما عن تأثيث وتجهيز غرفة المَفْرَج؛ فقد حرص الإنسان اليمني على إضفاء الجمال والثراء على هذه الغرفة؛ فجاءت أكثر غرف البيت اليمني ثراءً في زخارفها المتنوعة وأثاثها، وفق الموروث اليمني؛ وقد راعى المعمار اليمني أثناء تجهيزه غرفة المَفْرَج استغلال حيز المكان، بهدف تحقيق اجتماع أكبر عدد ممكن من الزائرين.

وتفرش أرضية الغرفة وترتّب بالمفروشات والسجاجيد بألوانها المميّزة، وتوضع المراتب التي يجلس عليها الضيوف بمحاذاة الجدار بمستوى منخفض؛ مما يسمح بإبراز الزخارف المتنوّعة على جدران الغرفة، كما توضع المساند والوسائد

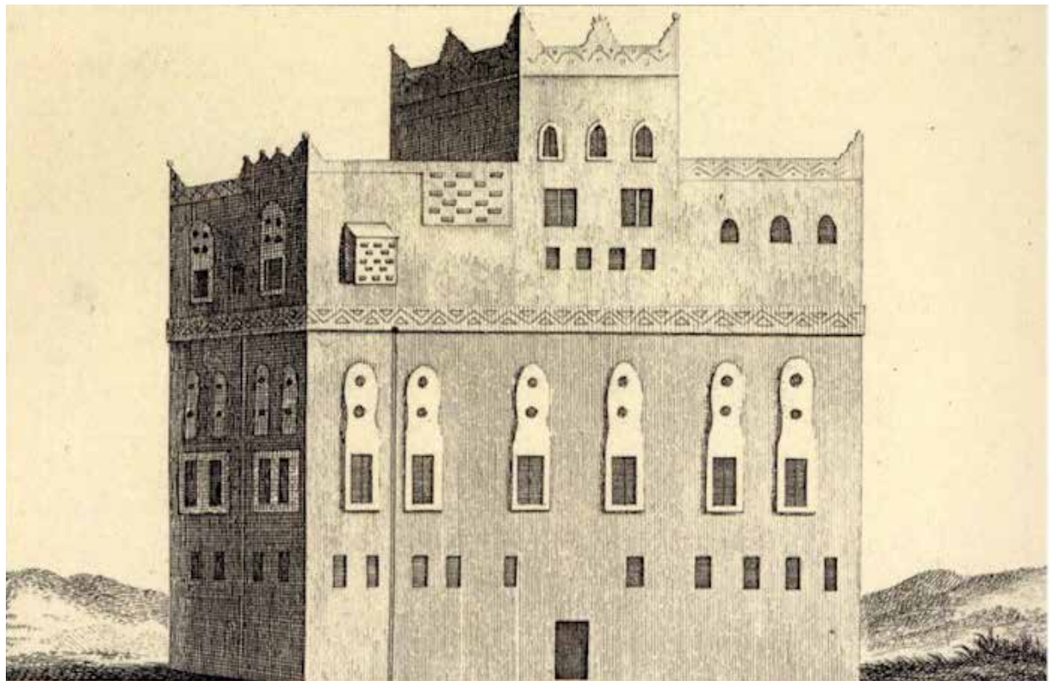

المزركشة فوق المراتب بجوار بعضها بعضاً، وتكون بطول 80-100 سم، وارتفاع 7 سم، وبسمك 18 سم، وتكون مكسوة بالقماش الملوّن، بينما يكون ظهر هذه المساند جهة الجدار بالقماش الأبيض، وتتوسط أرضية الغرفة منضدة صغيرة من الخشب المشغول بالزخارف المتنوّعة، ويعلوها أحياناً طبق نحاسي كبير، وتوضع عليها بعض الأدوات، منها: النرجيلات أو المدايع بلهجة اليمنيين، وأواني العطور والشمعدان، وفناجين القهوة، والعديد من التحف التطبيقية المختلفة.

المَفْرَج.. معنى واحد ومسميات مختلفة:

انتشرت غرفة المَفْرَج في معظم بلدان اليمن، وعرفت بمسميات عديدة، حسب كل بلد؛ فمثلاً عرفت في صنعاء باسم «الطيرنامة»، ويرجح أنّ الطيرنامة في صنعاء بمسماه

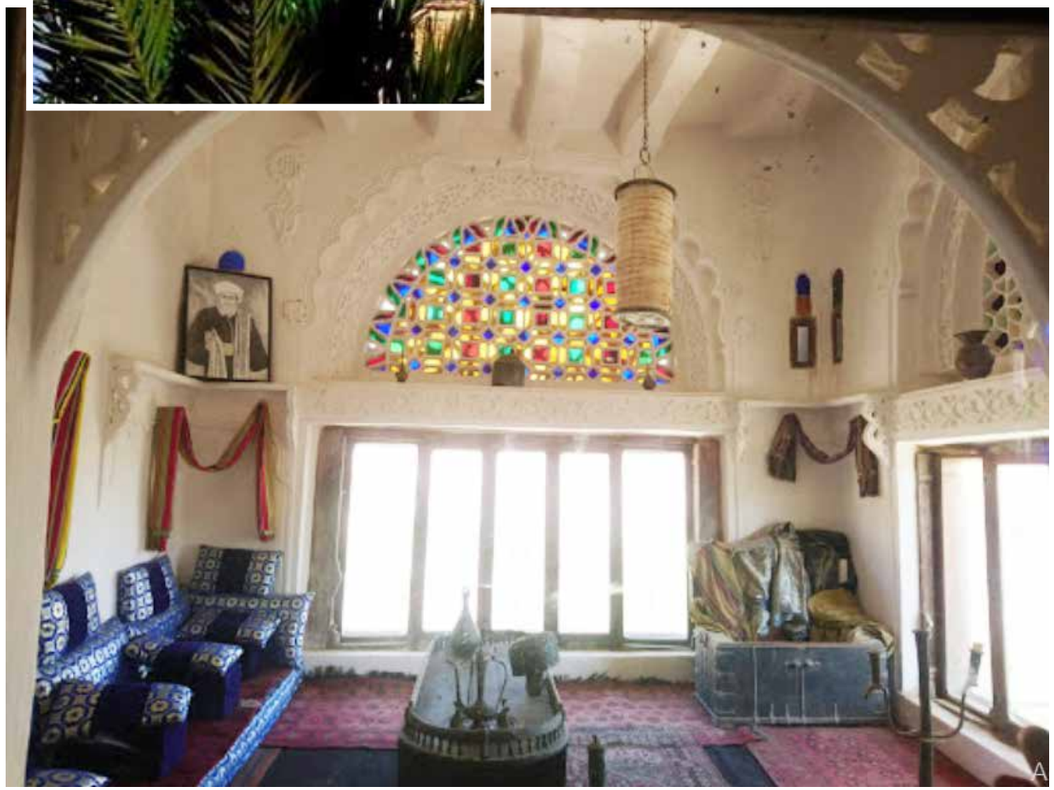

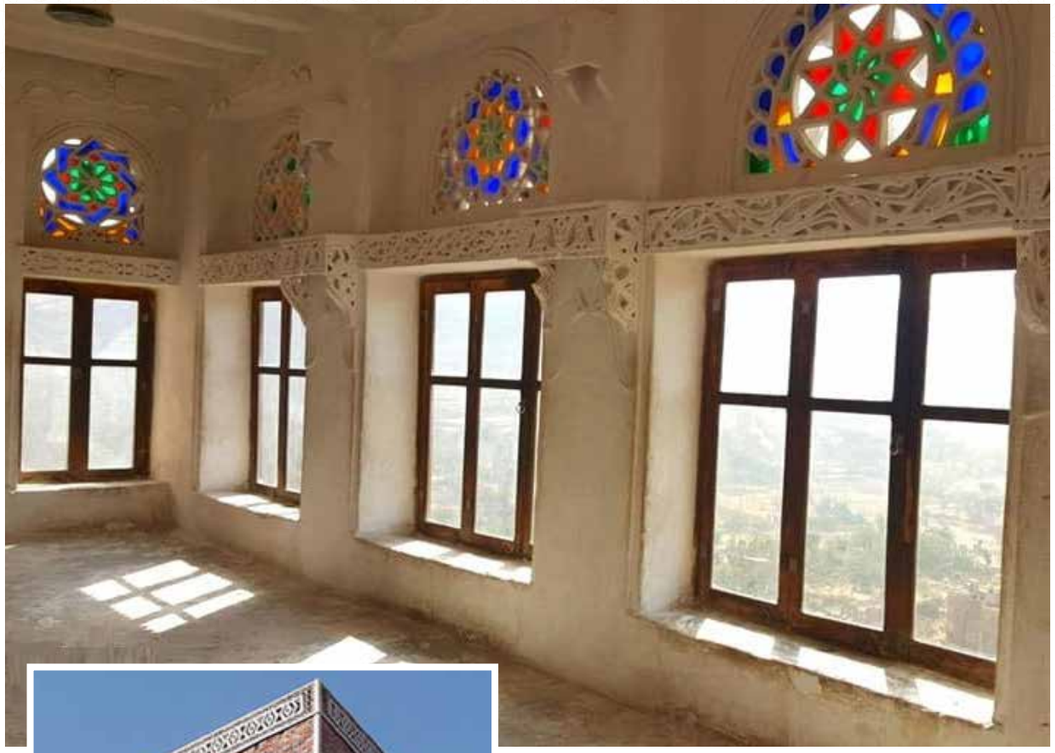

من جملة التأثيرات التركية على العمارة التقليدية في صنعاء؛ والطيرنامة عبارة عن غرفة صغيرة، جميع واجهاتها مفتوحة، ولها نوافذ واسعة؛ وقد حدث عليه تطوّر، حيث انتقل إلى الأدوار السفلية بدلاً من العلوية، وأصبح يطل على البركة في حديقة البيت، كما يعرف المَفْرَج في مدينة شبام حضرموت بجنوب اليمن باسم «الطيارم»، وأيضاً عرف باسم «الشامخة»، وباسم «المنظر أو المنظرة»؛ والحقيقة أن غرفة المَفْرَج كانت موجودة أمثلة مشابهة لها في العديد من البلدان العربية؛ فمثلاً في بيوت مصر توجد حجرة مماثلة لها بالطابق الأول، عرفت باسم «المنظرة»؛ ومازالت موجودة حتى الآن، وتمّ تحويرها لتصبح «المنضرة»، أمّا في البيت الإماراتي فوجد عنصر مشابه للمفْرج، عرف بـ«المجلس»؛ وهو عبارة عن مكان مخصّص للاستقبال، وله بابان، أحدهما يفتح على الشارع، والآخر يفتح إلى داخل المنزل.

المَفْرَج ودوره المهم في حياة أهل اليمن:

لغرفة المَفْرَج أهمية خاصة في حياة المجتمع اليمني، فهي تلعب دوراً مهماً في حياتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية والترفيهية، ففيها تعقد الجلسات الفنية والأدبية والاجتماعية الخاصة بصاحب البيت وكل المقربين منه، كما أنّ المَفْرَج يعدّ جسر التواصل مع المدينة، حيث الإطلالة المميّزة للبيت اليمني على المحيط الخارجي، كما أنّ المَفْرَج يعدّ سمة مميّزة للعمارة اليمنية التقليدية، وجزءاً أصيلاً من الموروث والتراث الحضاري اليمني، الذي يعبّر عن عمق العلاقات الاجتماعية لدى المجتمع اليمني، الذي حرص على تتويج بيته بهذه الغرف الخاصة، التي جعلوا منها مقراً للتأمل والاسترخاء والترويح عن النفس.

وأخيراً، نجح المعمار اليمني في تحقيق المتطلبات المعيشية والروحية كافة، التي يحتاجها الإنسان اليمني في مسكنه، وجاءت غرفة المَفْرَج في موقع متميّز، وأصبحت وحدة معمارية لها أهمية وخصوصية كبيرة لدى أهل اليمن، واستطاع المعمار اليمني بحنكته وفطنته المعروفة أنْ يقدّم من خلال المَفْرَج مجموعة من الحلول الذكية والمعالجات البيئية، وتطوير أنماط بنائية جديدة، تفي بجميع احتياجات الإنسان اليمني.

المصادر والمراجع:

1- أحمد قائد بركات، المفرج، الموسوعة اليمنية، ج4، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ط1، 1992م، ص2772-2773.

2- أحمد محمد علي الحاضري، فن وهندسة البناء الصنعاني، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ط1، 2006م، ص63-65.

3- حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ج2، أوراق شرقية، 1999م، ص44.

4- حنان نزار غازي وآخرون، الفكر التصميمي لعمارة السكن في صنعاء بين التقليد والمعاصرة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية المجلد 29، ع1، 2013م، ص ص579-595.

5- ابن القاسم (جمال الدين علي بن عبدالله القاسم، توفي بعد سنة 1176هـ/1763م)، وصف صُنعاء مستل من المنشورات الجلية، تحقيق، عبدالله محمد الحبشي، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، صُنعاء، ط1، 1993م، ص63.

6- عبدالله الحداد، صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، سلسلة مدن تراثية، دار الآفاق العربية 1999م، ص61-63.

7- محمد عبدالعزيز يسر، الموروث الحضاري لصنعاء القديمة، إصدارات جامعة صنعاء، اليمن، صنعاء، 2004م، ص390-391.

8- محمود أحمد حسن، محمد عبدالحميد نعمان؛ الأثاث التراثي اليمني دراسة تحليلية، المجلة الدولية للتصميم، عدد 6، إصدار 2، ص ص241-248.

المُثَلّثْ

د.محمد الجويلي
أكاديمي – تونس

«المُثَلَّثَةُ»، حساء من الأطعمة العربيّة الشعبيّة، التي كانت متداولة منذ أكثر من ألف عام، لدى فئات عريضة من المجتمع العربي، لاسيما الشرائح المتوسّطة الحال والفقيرة، ورغم أننا لا نجد في المعاجم وصفاً دقيقاً لها، إلا أنّها نوع من الحريرة أو الشوربة وما شابههما، ممّا يتناوله العرب إلى اليوم من الحساء، ولا تكلّف أصحابها نفقات هائلة، غير أنّ من يعرض لها في كتاب البخلاء، وينصح بها أصحابه، هو أحمد بن خلف اليزيديّ، الذي كان على ما يبدو من أصدقاء الجاحظ، الذي خصّص فصلاً لطرائفه في كتاب «البخلاء»، ويصفه بكونه من «طيابهم». يقول الجاحظ: «وقال لي مبتدئاً مرّة عن غير مشورة، وعن غير سبب جرى: انظر، أن تتخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلّثة، فإنها عظيمة البركة، كثيرة النَّزْل. وهي تنوب عن الغداء، ولها نفخة تُغني عن العشاء». هذا مظهر أوّل من بركة المُثَلّثة، فلدسامتها، ولكونها تملأ الأجواف، تقوم الوجبة منها مقام الوجبتين، فإذا تناولها المرء في الغداء، لم يعد في حاجة إلى العشاء، هذا علاوة على كونها من الحساء، وكل شيء من الحساء، كما يضيف، «فهو يغني عن طلب النبيذ وشرب الماء»، وهذا في حدّ ذاته، مكسب عظيم لمَن يسلك مسلك التقشّف، ويعتبر العيال «سوساً للمال».

لكنّ بركة «المثلّثة» لا تقف عند هذا الحدّ، ففوائدها الصحّية أيضاً لا يُستهان بها، ولا تقلّ عن قيمتها الاقتصاديّة: «فمَن تحسّى الحارّ عرِق، والعرق يبيِّض الجِلْد، ويخرج من الجوف. والمثلّثة تملأ النفس وتمنع من التشهي (إضافة)؛ لكونها سريعة الهضم». غير أنّ ما لا يخطر على بال - ما عدا بالطبع بال اليزيدي - ولا ننسى أنّ الفصل شتاء - أنّ المُثلّثة، كما يقول مخاطباً الجاحظ «تدفئ فتقوم لك في أجوافهم (أي العيال) مقام فحم الكانون من خارج، وحَسْو طارٍ يُغني عن الوقود، وعن لُبْس الحَشْوِ، والوقود يسوّد كلّ شيءٍ ويبيّسه، وصاحبه مُعَرَّضٌ للحريق، ويذهب في ثمنه المال العظيم، وشرّ شيء فيه أنّ من تعوّده لم يدفئه شيء سواه»، وهكذا يربح مَن يعمل بنصيحة أحمد بن خلف على جميع المستويات: بأقّل تكلفة يغذّي المرء عياله، ويدفئهم، دون أن يضطرّ إلى أن يثقلهم بلباس الصوف، وأغطيته، ويثقل كاهله بشرائها، ودون أنْ يعرّضهم إلى مساوئ الفحم، ومخاطر الوقود، وفي كلّ ذلك يبدو محافظاً على البيئة ومقتصداً في الطاقة، وحكيماً، بعد أن انتهى من عرضه فوائد هذا الطعام، ينصح الجاحظ قائلاً «عليك يا أبا عثمان بالمُثلّثة! واعلم أنّها لا تكون إلّا في منازل المَشْيَخَة وأصحاب التجربة، فخذها من حكيم مجرّب، ومن ناصح مشفق».

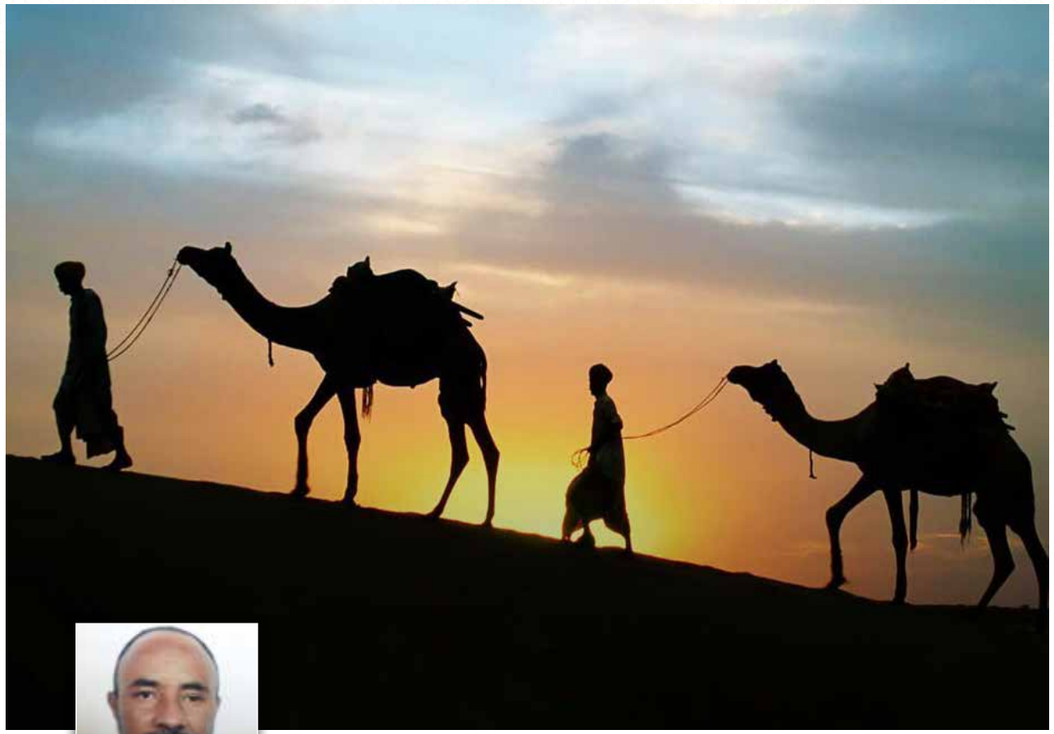

الرحلة العياشية ماء الموائد

مولود محمد سوسي
باحث مغربي

لقد دأب المغاربة عبر مختلف العصور على شدّ الرحال إلى المشرق الإسلامي؛ لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وطلب العلم... على الرغم مما كانت تمثله هذه الرحلة من مشاق ومخاطر؛ بسبب قساوة الطبيعة، وانعدام الأمن على الطرقات، وطول المسافة... وقد دوّن العديد من العلماء والأدباء والفقهاء هذه الرحلات، التي تُعرف بالرحلات الحجازية، أو الرحلات الحجية، وهي كثيرة في التراث المغربي.

والرحلة الحجية من أنواع الكتابة التي عرفت ازدهاراً واسعاً في المغرب والأندلس منذ القرن السادس الهجري.

وفي هذا الصدد، نتعرّض إلى مقتطفات من رحلة العياشي «ماء الموائد»، الذي يعدّ صاحبها بمثابة عَلَم من أعلام الثقافة والفكر في القرن السابع عشر الميلادي، الموافق للحادي عشر الهجري، إذن، فماذا عن العياشي ورحلته «ماء الموائد»؟ وماذا عن ركب الحجيج المغربي في الرحلة؟

حياة العياشي:

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ولد في آخر شعبان 1037 هـ (4 مايو 1628م)، بقبيلة أيت عياش، وهي قبيلة بربرية مستقرة جنوبي شرق المغرب، وقرأ هناك على أبيه، الذي كان يشرف يومئذٍ على فرع للزاوية الناصرية، وانتقل إلى فاس، حيث تلقّى العلم هناك عن أشهر العلماء، وقضى سنوات عدة من عمره في المشرق، متنقلاً من مِصرٍ إلى آخر. فلقي العلماء، وأخذ عنهم، وألقى دروساً.

وللعياشي تآليف مختلفة في العقيدة والحديث والفقه والتراجم والتصوّف.. وكان العياشي متمسكاً بالزهد والورع، جانحاً إلى الطريقة الصوفية، توفي شهيد الطاعون في 15 ذي القعدة 1090 هـ (3 ديسمبر1679م).[1]

رحلة العياشي «ماء الموائد»

طبعت رحلة العياشي «ماء الموائد» على الحجر بالخط المغربي في مدينة فاس، سنة 1316/ 1898م في مجلدين، يضم الأول 456 صفحة، والثاني 422 صفحة، وتوجد نسخة مصورة بالأوفست للطبعة الحجرية، صدرت بالرباط سنة 1397هـ 1977م، وضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، وقدم فهارسها العامة من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب.. الأستاذ محمد حجي.

وقد قام أبو سالم العياشي بثلاث رحلات إلى المشرق، الأولى عام 1059هـ (1649م)، والثانية عام 1064 هـ (1653م)، والثالثة عام 1072هـ (1661م). ومن الملاحظ أن كتاب رحلته «ماء الموائد»، لم يتضمن إلا أخبار رحلته الثالثة.

وقد ذكر العياشي في الجزء الأول من كتابه، أنه خرج

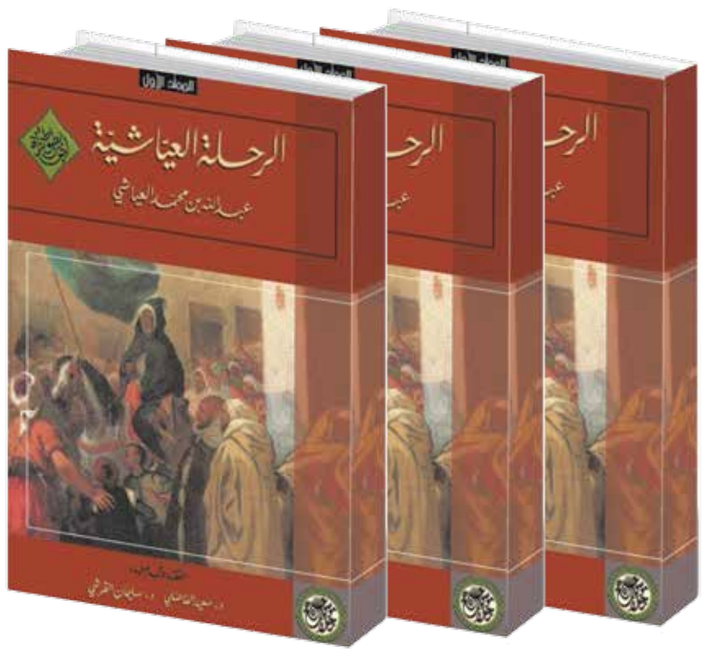

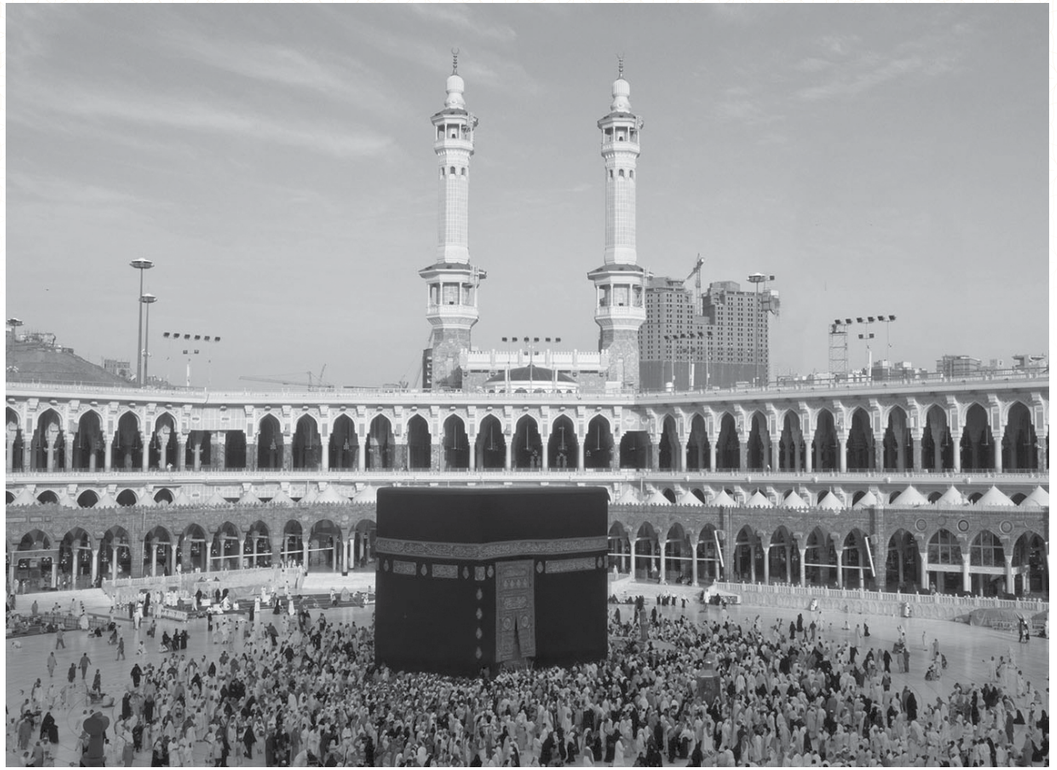

من بلده المغرب، يوم الخميس، من أول يوم من ربيع الثاني عام 1072 هـ للحج، حتى وصوله مدينة القاهرة في 26 رمضان من السنة المذكورة نفسها. وهو يصف الأمصار والوديان، ومن لقيه من علماء في مصر، كما وصف ركب محمل الحاج المصري، ومسيرته حتى بلوغه مكة في اليوم الخامس من ذي الحجة.

أما الجزء الثاني من رحلته «ماء الموائد»، فقد ذكر سفره إلى مكة المكرمة، ومكوثه فيها شهر رمضان، وقام بوصف فوائد أهلها في هذا الشهر، وعاد إلى المدينة، وتحدّث عمن لقيه من العلماء، وغادر هذه الأخيرة، واتجه إلى فلسطين، ثم أخذ طريق العودة إلى المغرب، حيث يقول: «ووصلنا بلدنا - أمّنه الله من كل سوء - يوم الأربعاء السابع عشر من شوال من سنة أربع وسبعين وألف...»[2].

وقد حوت رحلة «ماء الموائد» مباحث علمية متنوّعة عن منازل الحج، ومشاعره المقدسة، وعن أحوال الحجاز الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، واشتملت على العديد من الرسائل، وملخصات الكتب في سائر المصنّفات، من علم الحديث إلى علم الحفر، والكثير من الأسانيد، وعلم المسالك والممالك والأدبيات،

وأصبحت هذه الرحلة مرجعاً تاريخياً وجغرافياً، وغدت رحلته مصدراً لكثير ممن جاء بعده من الرحّالة، وحقّقت هذه الرحلة مبتغى صاحبها، حيث قال: «وقصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لا

كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً، فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع»[3].

كما خصّصت رحلة العياشي مكة والمدينة، ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأوصاف مهمة، تعتبر اليوم وثيقة مهمة لمعرفة حالة هذه الأماكن في فترات تاريخية مختلفة.

إذن، فماذا عن رحلة العياشي وركب الحجيج، والحياة السياسية والاجتماعية والثقافية... والمدينة المنورة؟

من خلال رحلة العياشي «ماء الموائد»، يظهر أن العياشي، قام بتدوين مجموعة من المعطيات في مؤلفه هذا، عن الحج والحجاج، حيث كان العياشي ضمن الركب السجلماسي، فقد تحدث عن مختلف المراحل التي قطعها ركب الحجاج منذ خروجه من المغرب حتى وصوله الى الحجاز، كما استعرض مختلف المشكلات والصعوبات التي تعترض ركب الحجاج، ومنها:

مسألة الماء: يلاحظ ورود إشارات كثيرة ومتعددة حول الماء في الرحلة العياشية، كمحور سيسيطر على جانب مهم من محتوى الرحلة، فإما أن يتحدث عن وفرته وأماكن وجوده، أو يتحدث عن نذرته أو عن ملوحته وعدم صلاحيته، فكثرة الحديث عن الماء تفسّر إلى حد ما إحدى الصعوبات التي كانت تواجه ركب الحجيج.

مشكل الأمن: فقد كانت القوافل الحجية في تلك الفترة تعترضها الأعراب، وفي هذا الصدد يقول العياشي: «...وجاء شيخ عرب البهجة (بصعيد مصر)، وحذر أمير الركب من عرب هذا البلد، وأخذ الناس حذرهم منه»[4].

وجود التجار ضمن ركب الحجيج: إن الرحلة العياشية كغيرها من الرحلات الحجية الأخرى، لم تكن تضم الحجاج فحسب، بل كانت تحوي في طياتها التجار، بل إن بعض الحجاج، وبعض العلماء، كانوا يمارسون التجارة إلى جانب ممارستهم الشعائر الدينية والأنشطة العلمية.

هاجس الخوف من الوباء: وقد أرّخ لنا العياشي ما عرفته بعض البلاد الإسلامية من وباء في تلك الفترة، حيث يقول: «... (مدينة درنة) بلغنا خبر الوباء بمصر والإسكندرية، نسأل الله أن يكفينا شره»[5].

الجانب الثقافي في الرحلة العياشية:

يعدّ هذا الجانب أحد الجوانب الطاغية على الرحلة العياشية، فالعياشي يعتبر أحد رموز الثقافة والفكر بمغرب القرن الـ17م، ومن خلاله تجربته بالمشرق يظهر لنا مدى الترابط والتواصل الثقافي الفكري، الذي ظل بين المغرب وبلاد المشرق، التابعة للدولة العثمانية. ويظهر لنا هذا التواصل من خلال إقامة العياشي بمصر والحجاز، وخوضه في العلم، فمنذ وصول العياشي إلى مصر كان شغله الشاغل هو أن يكون أحد الفاعلين والمشاركين في الحياة الثقافية بالمشرق، فكان أول ما فكر فيه وهو على أهبة الدخول إلى القاهرة، هو السكن بالقرب من الأزهر «... بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا، فقدموا مع من تقدم إلى القاهرة، ليرتادوا لنا منزلاً قرب الأزهر»(6)، فهذا القرب أتاح له فرصة حضور حلقات الدروس بالأزهر، والالتقاء بعلمائها، والجلوس معهم، وأخذ الإجازة منهم.

ومن الأشياء التي تعبر أيضاً عن التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق، وعن هذا التواصل حرص الرحّالة المغاربة على شراء الكتب النادرة من المشرق، والإتيان بها إلى المغرب، كما ترجم العياشي أيضاً في رحلته لبعض العلماء المغاربة الذين استقروا في المشرق.

وقد اختزنت الرحلة العياشية معلومات دقيقة ومفصّلة حول الحياة الاجتماعية للبلدان المشرقية (مصر - الحجاز - الشام)، من عادات وتقاليد.. وسجل أيضاً بالخصوص بعض جوانب الاختلاف والتشابه بين بلاد المغرب والمشرق.

ومن البلدان التي أفاض في الاهتمام بها المدينة المنورة؛ لما لها من مكانة خاصة لدى المسلمين جميعاً.

المدينة المنورة في رحلة العياشي:

حظيت المدينة المنورة باهتمام خاص من طرف الرحّالة

المغاربة، وتزخر رحلاتهم بمعلومات مهمة ودقيقة عن الحياة الاقتصادية والفكرية والعمرانية والاجتماعية... إذن، فماذا عن المدينة المنورة في «ماء الموائد»؟

قام العياشي بوصف معالم المدينة الجغرافية والآثارية والتاريخية، حيث كتب عن جبالها وأوديتها وأماكنها ومساجدها... حيث يقول: «فمنها مسجد قباء، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، على أصح الأقوال، وقيل هو مسجده - عليه السلام - كما ورد في حديث، وجمع بأنه يطلق على كل منهما»(7).

كما أشار العياشي إلى بعض عادات أهل المدينة، من بينها أنه: «في كل ليلة جمعة يجتمع الناس بعد العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين، فينشد كل واحد منهم قصيدة أو قصيدتين...»(8).

ومن عادتهم أيضاً التهنئة بحلول الشهر الجديد، حيث يذهب كل واحد في أول يوم من كل شهر إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة، حتى يهنئه في منزله، ولله در القائل:

إن الأهلّة في السماء مناجل — بطلوعها تتحصد الأعمار

فلمَ يهنئ بعضنا بعضاً بها — وطلوعها بأفولنا إنذار

على عكس ما في المغرب التي تكون التهنئة بالأعياد وما شكلها(9).

ومن «عادتهم في الأملاك أن يكون عقد النكاح بالمسجد»(10).

وتزخر رحلة العياشي بالكثير من الأوصاف المختلفة عن المدينة المنورة، وسنقتصر على ما ذكر أعلاه، لننتقل لتقييم رحلة العياشي، من خلال ما قاله في حقها الكثير من جهابذة العلماء.

القيمة العلمية لرحلة العياشي «ماء الموائد»:

لرحلة العياشي «ماء الموائد» أهمية بالغة؛ لما حوت من المباحث العلمية المتنوّعة عن أحوال البلدان والمعالم الجغرافية، والمعاملات التجارية والآثار وتراجم العلماء.. وأصبحت رحلة العياشي مصدراً أساسياً لكثير ممن جاء من بعده من الرحّالة المغاربة، وقد أثنى الكثير من العلماء والمؤرخين، عرباً أو مستشرقين، على أهمية هذه الرحلة، وأنها نموذج يقتدى به.

كما نالت إعجاب العلماء المغاربة، الذين أثنوا عليها ثناء حسناً، وبهذا الثناء الحسن للعلماء، نخلص إلى القول عن رحلة العياشي بالتنصيص على الخلاصات الآتية:

- إن رحلة العياشي أصبحت دليلاً ومرشداً للحجاج اللاحقين، وتختزن بين طياتها بعض صور الأتراك العثمانيين في الكتب التاريخية المغربية.
- الرحلة عموماً تعتبر أحد أشكال التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق الإسلاميين.

وفي الأخير نقول: إن كل الذي ورد في هذا العرض عن العياشي ورحلته «ماء الموائد»، لا يعدو سوى مقتطفات وقفزات ومحطات متناثرة من رحلة «ماء الموائد»، التي كانت ولاتزال محطة دراسة واهتمام كثير من كبار العلماء، مسلمين وغير مسلمين.

المصادر والمراجع:

1) محمد أمحزون: المدينة المنورة في رحلة العياشي، دراسة وتحقيق، دار الأرقم للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى 1408هـ/1988 م ص 47 و48.

2) محمد أمحزون: المدينة المنورة 5.

3) رحلة العياشي «ماء الموائد»، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، نشرها محمد حجي، 1397 هـ/1999 م الجزء الأول ص 5.

4) رحلة العياشي ج1 ص 118.

5) محمد أمحزون، المدينة المنورة ص 83.

6) محمد أمحزون، المدينة المنورة ص 201.

7) رحلة العياشي ج2 ص 289.

8) رحلة العياشي «ماء الموائد» ج 1 ص101 103--107 108.

9) محمد أمحزون، المدينة المنورة ص 201.

10) رحلة العياشي ج2 ص 289.

المطر.. الحاضر القوي في الأدب الشعبي الإماراتي

«الشعر النبطي»

(2)

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي – الأردن

الماء والحياة صنوان لا يفترقان، فالماء مادة الحياة التي لا غنى لأحد عنها، وهو كما الحياة، قصة أبدية، بلا بداية أو نهاية، فما يعرفه المرء عن الماء قد يكون كثيراً، ولكنه يظل قليلاً مقارنة بعمق المياه وتغلغلها في كل مجالات حياة البشر والحيوان والنبات، وحتى الجماد.

ويكشف التاريخ القديم للجزيرة العربية مدى أهمية هذا المورد المحدود والثمين، إذ اتخذ سكانها، طيلة قرون، حياة البداوة والترحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والخصب تبعاً، لأن حياتهم كانت تقوم على الزراعة وتربية الماشية، ولم يختلف الأمر عندما اتجهوا إلى التفكير في الاستقرار، فظل شرط وجود الماء أساسياً في تحديد موضع الاستقرار، وشكلت منابع الماء، مثل العيون والأنهار، محور التجمعات السكانية القديمة، فيما ظل المطر حلم الباقين الذين عاشوا يحلمون بهطوله، ويتمنون قدومه ويرقبون السحب التي كانت تحمل إليهم بين تكويناتها مصدر الحياة.

فحلم الماء الذي أنطَق الرمال بأبجدية التحدي، انبثق من العطش والسراب اللامع، وظل هذا الحلم ملازماً لإنسان الجزيرة العربية، لاسيما في الإمارات، حتى تغلغل الحلم في سيرورة حياة أهلها، واستوطن في عمق موروثهم الشعبي، وغدا مدعاة لكثير من إبداعات مختلف صنوف الأدب الشعبي؛ فنجد الحكايات الشعبية، والأمثال الشعبية، والشعر النبطي، وغيرها مما يتماهى فيها الحلم بالماء والمطر مع ما يجيش في النفوس من تطلعات ورغبات تخفف ملوحة الحياة.

المطر في الشعر النبطي في الإمارات

استعرضنا في الجزء الأول من الدراسة المطر في الأمثال والأقوال الشعبية في الإمارات، ونتابع في هذه الجزء موضوع المطر في الشعر النبطي، وما تركه لنا الشعراء من إبداعات، حيث صار التمني بقدوم المطر مقترناً بالتمني بلقاء الأحبة، وغدا وجدان الشاعر لا يبارح القصيدة، إلا إذا اختتمها صاحبه بالدعاء والتضرع إلى المولى؛ كي يسوق المطر إلى ديار المحبوبة، وديار كل من أعزَّ، بل ديار كل

من يشاركه حلم قدوم هذا العزيز.

ها هو المرحوم الشاعر ابن مترف، يحتفي بنزول الأمطار، وينقل تبريكاته للقيادة بهكذا مناسبة، فيهدي المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيَّب الله ثراه - في عام 1998م، قصيدة جاء فيها:

مبروك يا من ببركاتك رويت الأرض والأوطان
الله سقانا الغيث يا شيخ واخضرَّتْ الديره
مبروك يا زايد ويا زايد جنابك بحلم وشان
فكّاك صعبات الأمور المعاسيره
يا شيخ ليتك عندنا وتناظر الدار بالأعيان
كساها حيا الوسمي ولبست السندس مخاضيره
سقاها من الظفرة جنوب حتى حدود عمان
وشمال وشرق إلى كلبا وبلدان الفجيرة
وعلى جلفار ياد وباتت ابْروقه كأنها ظيّان
وبانت جبال الحيل من سنا نوره وتسفيره
وجنّب وحط الجري والساعدي له نيشان
وسقا المنامه وإنتحا منها مغربٍ سيره
والذيد خلّا سيوحها والرمل كلها وديان
ثلاثين يومٍ المأ ما نشف من مغاديره
وعلى الفلي يود هرقه وعلى بياته لان
وغرّب وخلّا دبي مستقره وهوَّن امسيره
ادیار آل مكتوم فيها ملتقى الهين والعربان
كل ما قزر موسم للهجن يا موسمٍ غيره

وينقل المرحوم الشاعر ابن معضد تفاصيل نعمة الأمطار التي عمَّت البلاد في قصيدة عن ذكريات الصبا والأمطار سماها «هاض المثل من خاطري»، إذ يشكو ولهه بمحبوبته ثم يقول:

هبت هبايب والليالي مدنّه
دن الرعد والبرق فيها ازديادي
عطية المعبود ماهب بْمنّه
هلّ المطر وانحى على كل وادي
شرب الوطا والسيح والحير كله
برّ وبحر وامّا تحوز البوادي
و«العين» و«الجيمي» سحايب نشنّه
وع «ابوظبي» دار الشيوخ الأمجادي
«المعترض» و«الياهلي» والمحله
«لمويجعي» هلّ امْطره واستيادي
ع سيح «هزاخر» والمغاني خذنّه
«الساد» يروى و«اليحر» والبلادي
و«سيح بن عمّار» جنّة مجنّة
وآزم غديره مدهمٍ بالسوادي

ويرسم المرحوم الشاعر الدهماني لوحة يستحضر فيها بعض آثار المطر، فيقول:

والبارحة يوم الدليهين غفّال
أنا بهواجيس الشعر والطرنشيب
خايلت برّاقٍ من الغرب شعّال
يسقي شمال ومغربي وصوب لْمغيب
وأسقى على «وادي الحلو» بين الجبال
عقب المحل غنّى حمام الرعابيب
ولا ينقطع يوده على السيح همّال
كلٍّ بها عقب السنين المصاعيب
مريت ع «الصجعة» بها الرق شغّال
بامر الإله وعمْ كل المساحيب

وفي قصيـدة في الشـيخ زايـد بـن سـلطان - طيّـب اللـه ثـراه - للمرحـوم الشـاعر الدرمـكي الـذي حـضر المطـر في معظـم شـعره، فدعـا قائـلاً:

حفظك الله عن نيّـة خطـرْهـا أيا قايد مسيرتها وسـناهـا
عسى الوسمي يراودها بْمطرْها دنينٍ رْعودها حزّة غفاهـا
وتخْضـرّ المفـالي في قـفـرْهـا مراتيـع اليوازي في فـلاهـا

وفي قصيدة مجاراة لقصيدة الشيخ زايد يقول الدرمكي فيها:

بْحقّ من صَوّرْهـا لـي والي الاقـدار
سرّايٍ به مَطَـرْهـا يعله يسود الـدار
به ترتع في قَفَرْهـا لي مصْغرات أبْكار

وفي قصيدة أخرى قالها في الشيخ زايد كذلك، يدعو الدرمكي:

سقى الله دولتنـا بخيـرٍ سـرى لهـا
بـرعـدٍ وبـرّاقٍ يغـازل سـمـاء لهـا
هميلٍ وكلّ اسـبوع سـيله يعلّهـا
مـزره غـرابي في الجنـوب وشـمالها
والمطلعـي داوَر هـواه اعتـدل لها
ارخت وناحت سحبها وانتحى لها

وفي قصيـدة لابـن مـترف، قالهـا في عـام ٢٠٠٠م، وأطلـق عليهـا «رحلـة الأمطـار»، يتمنـى سـقوط الأمطـار عـلى ديـار محبوبتـه، وعـلى جميـع مناطـق الدولـة، إذ يقـول:

البـارحـة نـومـي مجـدّد حـرايبـه
هيّض امّـا بـه بـارقٍ في سـحـايبـه
ينـوض م المطلـع ولا عـرف يـوده
بعيـد وإلا مـن ادْيـاري قـرايبـه
أخـايلـه والقـلـب مشـغوب منّـه
اشتاق لـه شـوق المحـب لحبايبـه
يعلـه على دارٍ بهـا الـزيـن سـاكـن
يلين تبـطي في المغـاني غبـايبـه
يـزوره المـزيـون ويطيـب كيفـه
يبهي ويبسـم عـن ثمـانٍ عـذايبـه
ويقـول خـلّـونـا بهـذي الـديـره
لـيـن العشب ينبت بسيح و كثايبه
تـرعـاه خلفـاتٍ وفـرقٍ نشـاوي
عـربٍ تريـح القـلـب لو به لهـايبـه
أصيـل وديـرةْ بو خليفـة مقـرّهـن
متـلّـداتٍ مـا خـذوهـن يـلايْبـه
مـوطن اشْيوخ اللّي علينا ضفوهم
ذخـر العـروبـه لا بـدا شَـفْ نايْبه

ومـن أمنيـات الدرمـكي في هطـول الأمطـار عـلى أراضي الوطـن، مـا قالـه في هـذه القصيـدة:

يـا جـاعل لْـدينـك خليفـه يـا منجـيٍ يوسـف م الأسـجان
أرضك من الـمـاطـر شفيفـه لي بـرهـا مـن ذا المحـل شـان
يـا الله عسـى مـزنٍ كنيفـه يـوده غـزيـر يْعـمْ الأوطـان
لـه مـرعـدٍ نسـمع قصيفـه وبـرقٍ سـرى بـه بـات زفّـان
هطّـال مـا يـوقف ذريفـه وتْـزيـن بـه بـالعشـب وديـان
وتـروى الجعـايـد لي منيفـه وتْسـدّي بْعـلـقـا وبـركـان
دار الـزهـر مـربي الخشيفـه تـروى مـن البـاري بصفطـان
ومن «المنـادر» لي «غـريفـه» ومن «خور كلبا» إلى «أم الأشطان»
ومن «الخشوم» يْلين «سيفه» ومن الحـدود لْـ «غافة دهان»
ويبطي على «الخزنة» ذريفه ومـن الحـزوم تسـيـل غـدران

ويدعـو المرحـوم الشـاعر السـماحي بتـضرع إلى اللـه أن يجـود عـلى البـلاد بالمطـر:

البـارحـة والـنـاس ذهّـال دارت عـلـى بـالـي دواليـب
قام الشعر م القلب ينهـال وارْتـب حْـروفـه تـرتيـب
يـا الله يـا عـلّام الأحـــوال يـا مطّـلـع ع الخبث والطيب
انظر عبـادك وارحم الحـال آمـرتـنـا نـدعـوك وتْجيـب
نرجو عفـوك ومنّـك انسـال يـود المطـر لي بـات سـكْيب
ياخذ اسـبوع يبـات همّـال يـا لـيـن تخْضّـر العـراقيـب
ع السيح والصحـرا ولجْبـال وديـانـهـا تصبح مـداعيب

ويعكـس السـماحي صـور البهجـة بهطـول المطـر، والتـي تعقـب الترقـب والاستبشـار، فيقـول:

البـارحـة لعْيـون بـاتت سـهـيرة
أتـرقّـب أخبـار البشـايـر ولعْلـوم
عـلـم الحيـا اللّي لفـا نستخيـره
يعمْ الفـرح في سـايـر النـاس ويقـوم
جـادت على الـدولـه أمطـارٍ غـزيـره
مـن وابـل ينْهـلّ من سحب لغْيـوم
من «السلع» لين آخر حدود «الفجيرة»
سيلٍ عمـومـي مـا دعى حدّ مظلـوم
عطيّـة المعبـود مـا حـد غيـره
أسقى الرمـل والسيح وجبـال وحْـزوم
كـم وادي م الـروس تسـمـع هـديـره
بيّـت تـلايـا الليـل ويحـوّز سْـهـوم
بعض المنـاطق اغْـرقـت مـن غـديـره
حـام المنـازل والجـري آزم يْحـوم

ويصـف السـماحي في قصيـدة أخـرى آثـار الأمطـار في النفـوس وفي الطبيعـة:

دايـر ع بـالي نظـم لشْـعـار قمت أبتدي في القول واجيب
غـاب الكـدر عنّـي والأفكـار شـاعـر ودارت لـي دواليـب
قلبي انشرح من شفت الأمطار مْغـدّر وغـبّب تـغبيـب
عقـب المطـر بتْزِين الأشـجـار وحتى مراعي الـدار بتْطيـب
كان اعْشـبـت في كـل مظهـار رْمـول وسْـيوح ومسـاحيـب
بتْشـوف كـل النـاس سـنْيار ع «اللّند» و«النيسان» و«الجيب»
بـايـنْيَـعـوا لـلـبـر زوّار شـوّاب وأولاد وغـراشـيـب

وفي قصيـدة للشـاعر ابـن محنـا قالهـا شـاكياً حبـه لصديقـه حمـد بـن عميـرة الشـامسي، يدعـو بهطـول المطـر الغزيـر عـلى ديـار حبيبتـه كي يسـقي الوديـان ومـا جانبهـا مـن سـيوح وسـهول، فيقـول:

يِعـلْ مـزنٍ بـانت قـنـوفـه يسـقـي الـدار الينوبَّيـه
يسـقـي الـوديـان واقْفوفـه كـل يـوم وكـل عصـريّـه

وفي موضع آخر دعا ابن محنا بحاجب من المطر الغزير، فقال:

ويا الله بمزن وحايب ارْهام يسقي دياره غرب وجنوب
عسـن يـاور نـاسٍ احشـام علـي غـدير وداره اعْشوب

وتكـرر دعـاء ابـن محنـا بهطـول المطـر عـلى ديـار محبوبتـه في كثـير مـن غزلياتـه، فقـد قـال شـاكياً مـا يعانيـه مـن حـب لصديقـه محمـد بـن عبداللـه بـن يطبـع العامـري:

اشـتكيت وبحت بسـدودي إلي محمـد ذرب الافعـالي

ثم اختتم داعياً:

يعـلْ داره بـارق اليـودي كـل يـوم يْتـم همّـالي

وكما حال ابن محنا هو حال الدرمكي أيضاً، فها هو يضرع فيقول:

يعل الوسامي تجوّد في ترايبهـا ليليـةٍ سـايج الغـربي يزاغيهـا
دنّان رعـدٍ وعرّيضٍ يـلاعبهـا خرس الليالي سنا البرّاق لاظيها
قولوا معي عدّ ما خطّت كتايبها ديميّةٍ يعلها تسـقي مـواطيهـا

عسى بالاعشاب تتزخرف ترايبها ويدوسها بالثرى قايد يوازيها

ويدعـو الدرمـكي في ختـام شـكواه معاناتـه مـع الحبيبـة في إحـدى قصائـده، فيقـول:

يا الله عسى السحاب يمطر تـاظي بروقـه بْعقربيّـه
له عـارضٍ م الغـرب يمطـر لغْيوب تكسيها اسْوديّـه
سـال وجـرى سـيله وغـدّر انحا الرمل يود اضْحويّه
داره من الـمنبوت تخْضّـر تـازم رْياضـه سندسـيّه
عيـن العـزيب اللّي مـذيّـر مْربّ عشب المـوسـميّه

وفي موضع آخر يرسم الدرمكي أمنياته، فيقول:

عسى سحبٍ يغذّيه النسيم ودنّان الرعد في البعد خافي
يــراود ديــرةٍ فيهـا مقيـم نديمك بالتّسامح والتّصـافي
إذا عارض صبـاباتـه نسـيم يميـل العـود يكسـنّه ازلافي

ويحـدد الدرمـكي في قصيـدة أخـرى تفاصيـل وحـال المطـر الـذي يدعـو لقدومـه، فيقول:

اسال يا شيخ من لي بالعطا منّان آمـين قولوا معي وبْصافي النيّه
ثمان سـيلٍ وسـبعٍ مرعـدٍ دنّـان وثمان ما فرّقت شـرتـاه ديميّـه
ويسيل من يود في مرتع الغزلان وتْزين جيعان من عشبٍ وسـاميّه
تسقى ديارك سيل من عارضات امزان عرّيظ مزْرَه وشرجي وينوبيّه
بهدو الليالي وسحبٍ بارجه زفّان من عقب ليله يعلّه يود ظحويّه

والمطـر يحـضر في كل مناسـبات الشـعر، ومنهـا عيـادة المريـض، ففـي قصيـدة لابـن محنـا مهـداة إلى الشـيخ سـالم بـن مسـلم بـن حـم العامـري، عندمـا كان مريضـاً، دعـا في ختامهـا بهطـول كثيـف المطـر فقـال:

عل دارهم يود الأوسـامي من حـايبٍ مـدْهـمّ بسْـواد
يسـقي وطنهم كل عـامـي وصوب الوجن ينحي ويزداد

وفي الوطنيـات أيضـاً يُعـبّر حضـور المطـر عـن خالـص الأمـاني لخـير الوطـن، فيدعـو الدرمـكي بواحـدة منهـا:

يا منشي السحب الغليظ برْعدها وبرقٍ يسوقه ساري الريف الاوسام
ربوع دولتنـا بيـوده يحدّهـا مزره خفيف الريف نسناس الأنسام

وفي قصيـدة أخـرى أرسـلها إلى صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم، يدعـو الدرمـكي:

يعله على لبْلادي
ينْقادي
وقرون قرب السيف
رعد وسحبٍ هبادي
والهادي
شاقه صوت الحظيف
مزْرَه هبوبه هادي
به نادي
العقربي جذّيف
لين يْتيه بْسوادي
في الوادي
عشبٍ موجف كثيف
يروده الروّادي
م البادي
عشبٍ تايه كنيف

وفي رحـلات المقنـاص، حيـث يتولـد الشـعر، تنسـاب معـه أمنيـات المطـر، فهـا هـو الدرمـكي في رحلـة مقنـاص للشـيخ زايـد - طيّـب اللـه ثـراه - يدعـو:

يا الله عسا تعتادها كل عام مْطور بمزون تكسيها بها الرعد دوّايه
وسمي وشتوي وله بالعشب منظور ديمّةٍ في كل صبحٍ وممسايه
مفالي الخلفات تسـقى ثمان شْـهور المنتجات لْكل سابق منقّايه

عسى سحبٍ سرى في عارض مْزونه دنين رعده بهـدوْ الليل ما باتي
وسمي يسوقه خفيف الريف بالسونه يروي ترابك ويثني له بعلّاتي

وفي أحـد سـباقات الهجـن التـي أقيمـت في العـين، وحضرهـا المغفـور لـه الشـيخ زايـد بـن سـلطان، دعـا الدرمـكي:

يا الله يا منشي الغيث يا علّام تْحـدّد حدود دولتنا وسـاميّه
لميع برقٍ سـرى به مرعدٍ نهّـام مزْره من الريف نسناس الشراجيّه
يـاخذ ثمـان وثمانٍ وسـبع أيـام ما فرّق الريح له يا شيخ ديميّه

ويشـاكي المرحـوم الشـاعر راشـد بـن عبـلان الكتبـي الشـاعر الدرمـكي في قصيـدة يدعـو فيهـا:

يعل داره يـود سـحّابي مـزنـةٍ تهطـل مخـايـلهـا
تنبت الجيعان بعْشابي في «الكشاف» وفي مفاتلها

وفي قصيدة غناها ميحد حمد، يقول الدرمكي:

رمـانـي من بعيـد ولا تعنّـا ووثّـق بي صـوابـه من قـرايـب
عسى سحبٍ به المرعد يدنّا غيـومٍ مـا تـفـرّقهـا هبـايب
يعمّ شروف عذْيه في وطنّا تزين بعشب في شكله عجايب

ومـن ونّـات الدرمـكي التـي لا تخلـو مـن المطـر الممتـزج محاسـنه بمحاسـن المحبـوب:

رعدٍ سرى بأصواته بـه سـرّايـة مطـر
يْغنّـه فـي مبـاتـه ويسجي داره شهر
لين يْـزين بْنبـاتـه عشـبٍ تايَـه خضر

وفي موضع آخر عند الدرمكي، يقول:

عسى الأيام فيكم يجمعنّا ونبقى مثل ولفيـنٍ حبـايب
سرى الوسمي بدنّانٍ يدنّا كسا لـمْغيب سـحّابٍ رغايب
يسود حدود دولتنا عسنّا وتزهـي بالمنـابيت وعشـايب

وفي مشـاكاة أرسـلها إلى الشـيخ أحمـد بـن حامـد آل حامـد، رحمـه اللـه، يداخـل الدرمـكي في لوحـة شـعره خيـوط الحبيبـة بخيـوط المطـر، فيقـول:

قلبي بحبه ضـايـع راعي القدر الرفيع
خذ م اليازي نوايع قفرة عشبٍ ربيـع
يعل البرق اللمـايع بين مْـزونه شـعيع
رعده يغثّ الهايع سـاعة نـوم الهييـع

المصادر والمراجع:

1. ديـوان ابـن محنـا، للشـاعر محمـد بـن محنـا بـن لويـع العامـري، الشـاعر نفسـه، أبوظبـي: لجنـة الشـعر الشـعبي بنـادي تـراث الإمـارات، الطبعـة الأولى، 2008م.
2. ديـوان بـن معضـد، للشـاعر عبيـد بـن معضـد النعيمـي، جمـع وتحقيـق: راشـد أحمـد المزروعـي، أبوظبـي: نـادي تـراث الإمـارات، 2008م.
3. ديـوان الدرمـكي، للشـاعر محمـد بـن سـلطان الدرمـكي، إعـداد و تحقيـق: راشـد أحمـد المزروعـي، أبوظبـي: مركـز زايـد للدراسـات والبحـوث بنـادي تـراث الإمـارات، 2016م.
4. ديـوان الدهـماني، للشـاعر سـالم بـن سـعيد بـن جمعـة الدهـماني، جمـع وتحقيـق: راشـد أحمـد المزروعـي، أبوظبـي: مركـز زايـد للدراسـات والبحـوث بنـادي تـراث الإمـارات، 2016م.
5. ديـوان السـماحي، للشـاعر خميـس بـن حمـد السـماحي، إعـداد و تحقيـق: راشـد أحمـد المزروعـي، أبوظبـي: بيـت الشـعر بنـادي تـراث الإمـارات، 2012م.
6. ديـوان النبـع العميـق، للشـاعر خليفـة بـن محمـد بـن مـترف الجابـري، إعـداد وإشراف: راشـد أحمـد المزروعـي، أبوظبـي: لجنـة الشـعر الشـعبي بنـادي تـراث الإمـارات، الطبعـة الأولى، 2008م.
7. صحيفة الاتحاد، 2016/12/22م.
8. صحيفة الإمارات اليوم، 2011/9/21م.
9. صحيفة العرب اللندنية، 2015/10/5م.
10. مجلـة المـوروث الشـعبي، مملكـة البحريـن، العـدد الحـادي عـشر، إبريـل 2016م.

«تِسْلِيت».. عروس المطر

شهرزاد العربي

بعد أن أشرقت الشمس، خرجت «تِسليت» من بيتها، واتَّجهت صوب العيون والأنهار المنسابة بين الحقول، والشلالات النازلة من الجبال، حيث يختلط خرير المياه مع أصوات الحيوانات وشدْو الطيور وعبير الزهور، فتعود الحياة إلى كل شيء.

وعندما وصلت تسليت الجميلة، ذات الأثواب الحريرية، ازداد المكان جمالاً، وتجاوب ساكنوه مع أغانيها.

لم تكن هذه الفتاة الجميلة تعبأ بشيء غير وجودها وسط المياه، فتلعب ـ كطفل صغير ـ بملء كفيها من الماء ورشه في الهواء، فينزل عليها، ويغسل وجهها، فيزيدها ضياء.

كانت تسليت تجوب المكان مشدوهة بجمال الطبيعة، وزرقة السماء، وخضرة الأرض، وتلألؤ مياهها التي كانت ترى فيها الحياة كلها، كما كانت تنتقل من نبع إلى آخر، وهي تزيح أغصان الأشجار التي تعيق سريان المياه، ووصولها إلى الحقول لترويها، فتهتز الأرض وتربو لابسة أجمل حلّة تجذب لها أنواع الكائنات، لكي تنعم بالحياة الرغيدة.. هذا ما كان من شأن تسليت، التي يعني اسمها في اللهجة الأمازيغية «خطيبة المطر».

دأبت تسليت على عادتها هذه منذ كانت طفلة، إلى أن أصبحت شابة يافعة، وازدادت جمالاً، وهي غافلة عن كل هذا.

وذات يوم بينما تسليت تستحم، تلبدت السماء بغيوم سوداء، تسوقها رياح قوية، توجهها نحو أرض هي بحاجة إلى الغيث، كان «أنزار» (ملك المطر في الأساطير الأمازيغية) يركب هذه الغيمة، وفجأة لاح له نور بين الخضرة، فتعجّب أنزار من ذلك، وتوقع أن يكون النور نجماً هوى من السماء، لكن النور كان يتحرك ذهاباً وإياباً، مما زاد من فضول أنزار، فأخَّر موعد وصوله إلى وجهته، واتجه رأساً إلى مصدر الضياء، ثم اختفى بين الشجر ليرى ماذا هنالك، وإذا بستار الخضرة يكشف عن وجه يشعّ نوراً وجمالاً، تعلوه السعادة والبهجة، جعل أنزار يقرّ بعدم رؤية جمال مثله.

ظلّ أنزار يراقب الفتاة وهي تغني، فيتجاوب معها المكان كله، فتزداد بهجته بها، ووقعت في قلبه موقعاً لم ينله أحد قبلها.

غادر أنزار المكان ليسوق المطر إلى الأرض المحتاجة إليه، حاملاً معه صورة تسليت الفاتنة، لكنه وجد قلبه قد تعلق بها، ولم يستطع نسيانها، وحدثته نفسه قائلة:

ـ كيف لملك أن ينزل إلى مصاف البشر، ويهوى امرأة؟

حاول أنزار الهرب من حبه لـ«تسليت»، لكن هيهات، فقد غلبه الحب، فجاء إليها في صورة شاب غَسّانٍ، واقترب منها، وحيّاها، وطلب منها أن تسمح له برؤيتها ثانية، والحديث معها، لكن تسليت منعها الحياء من الرد، فهرولت مبتعدة عن أنزار، تكاد تتعثر بأثوابها الحريرية.

رفضت تسليت لقاء أنزار؛ لأنها اعتبرت ذلك خيانة لوالدها وأخوتها وكل عشيرتها، التي كانت ترفض زواج ابنتها من غريب.

لم تكن تسليت تعرف بشأن أنزار الذي أغدق على بلادها بالأمطار، فصارت أخصب الأمصار على الأرض.. لقد تعهد أرضها بالرعاية البالغة منذ أن رآها، وكانت هي تشدو بألحان العرفان دون معرفة من وراء ذلك، حتى عدّها قومها قدِّيسة جلبت الخير والنماء إلى بلادها.

عندها شعر أنزار بأنه قدم الكثير لـ«تسليت»؛ لذا استجمع شجاعته، وعاد إليها طالباً الزواج منها، لكنها رفضت طلبه، وتوارت عنه.

هنا غضب أنزار، وارتفع حيث السحب، ومنع نزول أي قطرة من المطر على منطقة الأوراس، فجفت الينابيع، وضحل ماء الأنهار، فأصبح العيش ضنكاً، واشتكى الناس ما أصابهم، وشدت الرحال بحثاً عن العيش في أماكن أخرى.

أدركت تسليت أن السبب في كل هذا، لكنها لم تجد غير الحزن على قومها وبلادها، فراحت تبكي وسط الخراب، مستنجدة بملك المطر كي يعود.

ظل أنزار يستمع إلى مناجاة تسليت له، لكن كبرياءه الذي ضحى به مرة يمنعه من إعادة الكرّة، غير أنه عندما كانت تسليت ترفع بصرها نحو السماء، وتنادي أنزار، كان يرى فيه الندم والرجاء، في حين كاد وجهها يصبح كالأرض بلا جمال.

شق على أنزار أمرها، وهو يتذكرها فتاة فاتنة متلألئة وسط المياه، تلعب وتضحك وتغني، وتحركت فيه ذكرياته الجميلة وهو يسترق النظر إليها، وهي تلعب هنا وهناك، تنظف الجداول، أو يهزها صوت حيوان فجأة، فتكون ضحكتها نغمة أخرى، يشتهي أنزار سماعها.

وفي لحظة غلب الحب والذكريات أنزار، فأرسل ركاماً أسود محملاً بأمطار غزيرة، وعندما رآها الناس هللوا، واستقبلوها بحرارة، ثم انشغلوا بفرحة المطر، ووصول الغيث، أما تسليت فبقيت تنتظر نزول ذلك الغسّان الذي تعلق قلبها به، ومنعتها عادات أهلها من البوح بذلك، ولمّا وقف أنزار أمامها أشرق وجهها، وقالت له:

ـ سأكون سعيدة بقربك على ألّا تتركني أبداً.

أنزار ـ صاحب الصواعق والرعد ـ جاء صوته كأنه أغنية تنشد أيام حبه وشوقه لتسليت، وأخيراً ضمّها إلى صدره، وانطلق بها نحو السماء، مُخلِّفين وراءهما قوس قزح، الذي كلما ظهر في الأفق بعد ذلك، تذكر أهل جبال الأوراس عروس المطر.

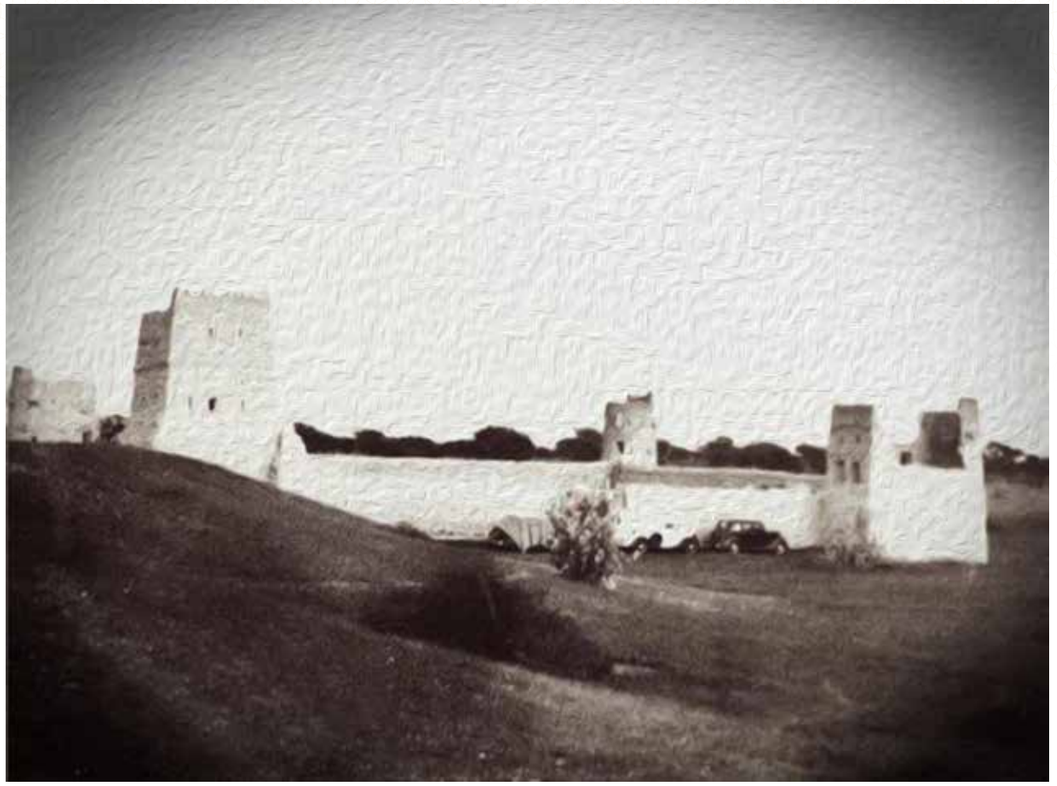

حصن الذيد

يعدّ حصن الذيد من أقدم المباني التاريخية في المنطقة الوسطى، وقد شهد ملامح تأسيس الذيد؛ لأن تاريخ الحصن يعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، نحو 1750 ميلادية.

كانت الحصون والقلاع التي بناها أهل المنطقة بمثابة أبراج دفاعية عن التجمعات السكنية، ومحطة للحماية والمراقبة، كما كان الحصن استراحة للحاكم في أثناء قدومه لرحلات القنص أو المصيف، وكذلك لاستقبال الزوّار، وكانت القلاع تضم غرفاً مخصّصة للحاكم، والبقية منها للحاشية والحرس، ويتولى حراسة الحصن عدد كبير من الحرّاس، الذين ينتمون إلى منطقة الذيد، إضافة إلى عدد من العمانيين، فالحصن مبنى تراثي، يرمز إلى أهمية مدينة الذيد، مؤرخاً حقبة زمنية من التاريخ الأثري للمنطقة.

مدخل الحصن من الناحية الشمالية، ويقابل فلج الذيد أو

الشريعة (هو مجرى مياه في جوف الأرض يتوسط الحصن تقريباً)، تتوزع حوله مجموعة من مزارع النخيل من جهة الشمال، لكون مخرج قناة الفلج في هذا الاتجاه، وكان لحصن الذيد الكثير من الأهمية السياسية، حيث عقدت فيه اجتماعات سياسية بين شيوخ المنطقة ومندوبي الدول المجاورة، وشهد أيضاً الكثير من المعارك الحربية.

أما القلعة الثانية فتقع شمال الأولى، قرب طوي أو بئر اليفر، وهي مدورة أيضاً، تتكوّن من جزأين، القلعة بلا باب، وهذا الشكل من الأبراج يوحي بأن طابقه الأرضي استخدم سجناً، وتقع القلعة الثالثة في الركن الغربي من الحصن، وهي مربعة الشكل، وتتكوّن من جزأين مشكّلة طابقين، أرضياً وأول مع شرفة، وهي مخصصة للدفاع عن الحصن، لما تمتاز به من فتحات في جوانبها الأربعة، أما القلعة الرابعة فهي مربعة الشكل، ومن ثلاثة أدوار، وللحصن سور يصل القلاع ببعضها بعضاً، ويكون ملتصقاً بالأبراج المدورة والمربعة.

كما ضم الحصن ساحة من الرمل المخلوط بالطين، بهدف تماسكه، وكان فيه بعض الأشجار المحلية المعمرة، ولاتزال بعض تلك الأشجار متوافرة في المنطقة، أما ما تبقى من الحصن فيمكن مشاهدته خلف السياج بجانب فلج الشريعة، وتم وضع السياج حفاظاً على ما تبقى من العبث، ويتكوّن الحصن قبل تهدمه من أربع قلاع ضخمة، أولى هذه القلاع مدورة، وتتكوّن من ثلاثة أجزاء مبنية من الطين المستخرج من اليرف أو الجرف الموجود في اليارح، وهي لفظة تعني أطراف الوادي، ووجودها بهذا الشكل يهدف إلى تحصينها الدفاعي؛ لأن معظم الهجمات والغارات تكون آتية من الجهة الجنوبية، حيث الكثبان الرملية.

يقع الجزء الثاني من القلعة في الركن الغربي، وهي مربعة الشكل، وتتكوّن من طابقين، أرضي وأول مع شرفة، وهي مخصصة للدفاع عن الحصن، وتمتاز بفتحات في جوانبها الأربعة، وقد بنيت في عهد الشيخ صقر بن خالد القاسمي، وبالنظر إلى هندسة الحصن والقلاع، يمكن ملاحظة أن الواجهة دفاعية الطابع، وبسيطة المكونات، وهي عالية الارتفاع، وتتميز بالفتحات الاستكشافية متعددة الاتجاهات، بدافع المراقبة والمواجهة.

وصمّمت بطريقة تسمح بسيطرة الداخل على الخارج، كما تحتوي على فتحات صغيرة الحجم تسمى مرامٍ، بحيث يستخدمها الأشخاص المعنيون بالدفاع عن المنطقة وقت العدوان، وفي أثناء الحركات العسكرية في ذلك الوقت، وتتميز المرامي التي تتوزع على محيط الواجهة بتشكيلاتها المخروطية في المستوى الأفقي، بما يضمن أكبر مساحة للرؤية من الداخل إلى الخارج، كما تحتوي على أدوار أو طوابق بالداخل، وأماكن مخصصة لاستراحة الحراس، والدور الآخر والعلوي فهو للحراسة والدفاع، ولاستكشاف المحيط الخارجي للمنطقة.

وكانت التهوية والإضاءة الطبيعية تتم بفضل الساحة الداخلية الواسعة للحصن، التي كان يحيطها السور الخارجي، الذي يحتوي على باب رئيس، يستخدم للدخول إلى الحصن، وآخر ثانوي مثبت على جدار الحصن، وتتكوّن مواد البناء التي استخدمت قديماً من قبل أهل المنطقة، بما يتناسب والبيئة الخاصة التي ينتمون إليها، حيث كانت من الطين والجص المجفّف الذي كان يجلب من منطقة كدرة.

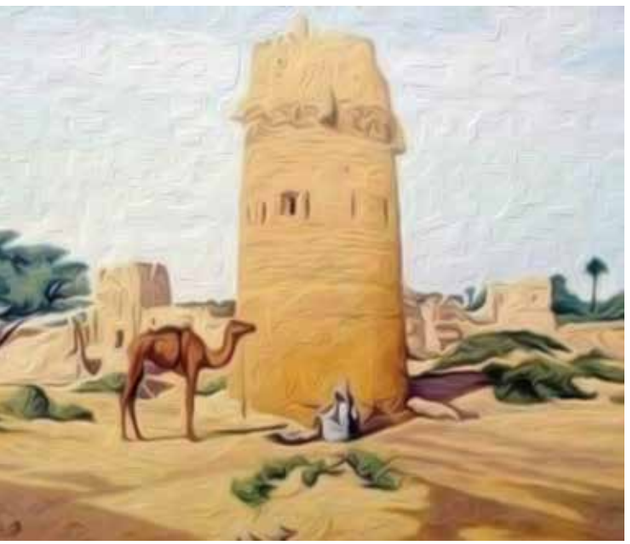

عمار السنجري.. عاشق الصحراء

كاتب وشاعر ورحّالة مغامر، وباحث تراثي من الطراز المتميز، وعاشق الصحراء، ومدوّن ثقافة القبائل، وراصد صورة البدو بعيون غربية، عمل منذ سنوات طوال على جمع الروايات الشفوية من كبار السنّ الذين حفظوا في صدورهم الكثير من المعارف التراثية الثرية، من أقوال وأشعار وعادات قولية، وحكم وأمثال، هو الكاتب عمار السنجري، عاشق الصحراء.

ينحدر عمار السنجري - رحمه الله - من أسرة كريمة عرفت بالعلم والمعرفة، فهو الابن الوحيد للعالم الربّاني عبدالرحمن السنجري، كما أنه خريج جامعة الإمارات؛ تخصص إعلام ولغة إنجليزية، ثم تقلّب في عدد من المناصب في جهات حكومية مختلفة في دولة الإمارات، حيث انتدب مسؤولاً إعلامياً في مركز زايد آل نهيان للتراث والتاريخ بالعين من سنة 1988 إلى غاية 2001، ثم عمل مديراً لمكتب العين، التابع لمؤسسة البيان للطباعة والصحافة والنشر، في الفترة ما بين 2005/5/1

إلى 2007/8/1، وبعدها انتقل للعمل كقائماً بأعمال رئيس قسم الدراسات والبحوث في إدارة التراث المعنوي في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وكبير الباحثين في أكاديمية الشعر.

كما عمل باحثاً ومعدّاً لبرامج وثائقية ومحلية في شركة أبوظبي للإعلام (قناة أبوظبي - الإمارات)، ثم انتقل بعد ذلك للعمل باحثاً أول في التراث، ومسؤول قسم المطبوعات والنشر في معهد الشارقة للتراث.

كانت حياة عمار السنجري حافلة وعامرة وزاخرة بالعمل والإنتاج، حيث كان باحثاً لا يهدأ له بال، ولا يستقرّ له قرار، هائماً خلف الخاصة والعامة، وقد قاده شغفه بالتراث، وحبه للاطلاع، إلى النبش في أعماق الذاكرة الشعبية الإماراتية، والغوص في أعماق التاريخ الشفوي، والبحث في مختلف تمفصلاته، باحثاً عن كل شاردة وواردة، مسجلاً ما تناهى إلى مسامعه من أفواه الرواة الذين جالسهم وأخذ عنهم، كما اشتغل على توثيق العديد من القضايا التاريخية، منها فيلم وثائقي بعنوان «عرب ما وراء الحدود»، تناول فيه آثار العرب والمسلمين في منطقة آسيا الوسطى وجنوب القوقاز، وقد عرضه تلفزيون الشارقة.

أهم كتبه:

- «التاريخ الشفاهي»: صدر في طبعته الثانية عن معهد الشارقة للتراث عام 2016، وهو يقوم على مقاربة محورية تنحاز - إلى حد كبير - للمادة المروية الشفاهية، ويناقش عبر محاوره الثلاثة أهمية التاريخ الشفاهي، مفهوماً ومنهجاً ومصادر، مستعرضاً في تضاعيفه الكثير من التفاصيل الدقيقة لحياة المجتمع وقيمه.
- «شعراء ورواة من الإمارات»: يضم هذا الكتاب، الصادر في طبعته الثانية عن دار ضفاف في بغداد عام 2012، مجموعة من الحوارات التي أجراها عمار السنجري مع ثلاثة عشر شاعراً وراوياً من الإمارات.
- «ثقافات القبائل»: يرصد عمار السنجري في هذا الكتاب العديد من الموضوعات المرتبطة، بشكل أو بآخر، بموضوع القبيلة والقبلية من الناحية العلمية، وهو ما يراه عالماً غنياً ويستحق الدراسة.
- «ذاكرة الصحراء»: صدر هذا الكتاب في طبعته الأخيرة عن معهد الشارقة للتراث 2016، ويتضمن حوارين، مع سالم بن كبينة، وسالم بن غبيشة، اللذين رافقا الرحالة الإنجليزي ولفرد ثيسجر، المعروف باسم مبارك بن لندن، وكذلك حوارات مع شخصيات أخرى.
- «البدو بعيون غربية»: يستعرض هذا الكتاب عبر فصوله الثلاثة، صورة العربي البدوي في عيون الرحالة الغربيين، الذين عبروا الصحراء العربية جيئة وذهاباً، وكتبوا انطباعاتهم ومشاهداتهم عن المكان والسكان، وثقافتهم، ونحلة عيشهم، وطرائق تفكيرهم.
- «أرمينيا (فردوس آسيا المنسي)»: يُعد هذا الكتاب، الصادر في طبعته الأولى عن معهد الشارقة للتراث 2016، بعد وفاة الراحل عمار السنجري، كتاباً رحلياً، جمع فيه مؤلفه مشاهداته وانطباعاته عن أرمينيا، التي انطبعت في ذهنه، وعلقت في ذاكرته، من خلال الحكايات التي كانت ترويها له والدته، رحمها الله، كما عاد إلى ما حفظته مصادر الرحّالة والجغرافيين العرب عن أرمينيا في التاريخ.

«من عقب النذير ينوخذ الخامل»

عبدالله خلفان الهامور
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

مثل من الأمثال الشعبية الإماراتية كان يضرب في التحذير من مغبات الأمور وسيئ الأحوال، وأن على الإنسان أن يأخذ حذره وقت الأخطار، وعلينا اليوم أن نأخذ بعين الإعتبار بمفهوم هذا المثل، وإلا وقعنا فيما لا تحمد عقباه ، وكان شوابنا وأجدادنا في الماضي إذا وقع أمر خطير كانوا يأخذون حذرهم ويحذرون غيرهم، وقد وقعت في الماضي أمراض معدية مثل (الجدري والحصبة والملاريا) وكانت هناك إجراءات إتخذها الأجداد في مثل هذه الحالات ، ومنها العزل فكانوا يعزلون المصاب في مكان بعيد عن البلد ولا يقربه أحد ولا يذهب إليه إنسان إلا شخص قد أصيب بهذا المرض وشفاه الله، فيكون عنده مناعة من ذلك المرض، يحدثني أحد أعمامي قبل عشرين سنة ، أنه حدث في الماضي عندهم مرض الجدري وحصد أرواح بشر كثير، وكان التعامل مع المصابين بالعزل وكان الذي يُشفى كان هو من يتعامل مع المصابين لوجود المناعه عنده، وقد أخذني بيدي إلى أحد أماكن العزل وكان أحد الجبال في المنطقة، وقال لي: (تشوف ذاك السواد في جانب الجبل؟، وقد سألته عن هذا السواد، فقال لي : هذا المكان نصبت فيه خيمة لأحد المصابين بالجدري وكانت زوجته هي التي كانت تقيمه وتساعده وتقدم له الأكل والشرب وكانت هي ممن شفاهم الله من هذا المرض والوباء، وبعد أن مات وكان آخر واحد من المصابين، جُمعت جميع حاجاته مع خيمته والمتبقي من أغراض وحاجات ممن أصابهم الوباء، وتم حرقها وهذا السواد من تلك النار التي تم إشعالها في هذه الحاجات).

الدروس المستفادة من هذا الموقف والعبرة:

الدرس الأول: الوقاية وكانت بالعزل للمصابين في مكان بعيد عن البلد.

الدرس الثاني: التحذير من الإختلاط مع المصابين إلا أشخاص قد شفاهم الله من هذا المرض.

الدرس الثالث: أخذ الحيطة والحذر.

الدرس الرابع: ثقافة المجتمع في ذلك الزمن وحسن التدابير التي تم الأخذ بها.

كل هذه الدروس نتعلم منها أن المجتمع في الماضي وفي مثل هذه الحالات الطارئة كان يعمل بأخذ التعليمات وإلتزام الوقاية والتعاون وعدم إثارة الذعر والفوضى بين الناس، والملاحظ كذلك أنهم على ثقافة عالية في إتخاذ التدابير الإحترازية وعدم التهاون والإستهتار في مثل هذه الأحداث، كل ذلك يحدث على قلة الإمكانات العلاجية والعلمية، ولكنهم في المقابل كانوا على ثقافة الوقاية وأنها خيرٌ من العلاج.

ونحن اليوم نمر أو يمر العالم بأسره وليست الإمارات لوحدها بوباء (كورونا) قد تختلف المسميات عن السابق ولكن ما تخلفه هذه الأوبئة من نتائج ووفيات واحدة، ولكننا في دولة الإمارات وبفضل من الله ومن ثم حكومتنا الرشيدة في إدارة هذه الأزمة نرى حسن إدارة هذه الأزمة من إجراءات وقائية ومن تعامل مع المجتمع بطريقة حضارية راقية تنم عن الوعي الكبير لفرق العمل والتي خصصتها الحكومة لمثل إدارة هذه الأزمات مثل (الهيئة الوطنية لإدارة الطوارئ والأزمات) والفرق والإدارات المحلية والتي تعمل على تفعيل القرارات والتعليمات الصادرة من الجهات المختصة، وما يرفع الرأس حقاً هو: إستجابة المجتمع لمثل هذه التعليمات والتي توجهها الحكومة مخاطبة بها أفراد المجتمع وكل من يسكن على هذه الأرض الطيبة، وما يرفع الرأس ونفتخر به كشعب إماراتي هو: أسلوب مخاطبة حكومتنا الرشيدة والمسؤولين للمجتمع والتودد لهم في الخطاب بالنصح والإرشاد ، هذا الأسلوب الراقي والفاخر، أسلوب يمتزج بخوف الأب على أولاده وفي نفس الوقت يبشرهم أن كل الأمور على ما يرام، وبأن كل شي متوفر، مما دعى المجتمع بالمبادرة والمسارعة بالسمع والطاعة والوقوف على تعليمات ولي الأمر والشعور بالمسؤولية المجتمعية وأن الجميع مسؤول عن سلامة الوطن.

نحن في الإمارات بفضلٍ من الله، أمام حكمة قيادة ، فزعة قائد، مبادرات وزراء ومسؤولين، تجاوب مجتمع، شعور بالمسؤولية ، مبادرات أصحاب الخير، تضحية أطباء، وفرق عمل تعمل ليل نهار بلا كلل ولا ملل لراحة مجتمع.

نحن في الإمارات وبفضلٍ من الله أمام قرارات وقائية، وإمكانات عالية ، ومواد متوفرة، وخدمات راقية.

نحن في الإمارات ضد الشائعات وضد كل من تسول له نفسه بإستغلال هذه الظروف الإستثنائية للتربح والجشع، نحن ضد ناكري المعروف ممن قدمت لهم الدولة كل شيء ، وذللت لهم كل الصعوبات، حتى أصبحوا على قمم عالية، ثم كان الجزاء للدوله أن ينظروا لها من عالي تلك القمم وكأنهم لم يسمعوا ولم يروا شيئا، نحن ضد كل من إستهان بتعليمات القيادة الإحترازية وخالفها، نحن ضد كل مستهتر لا يعطي بالاً لتوجيهات ونصائح الجهات المختصة، نحن ضد كل شيء يقوض أمن وسلامة الوطن والمواطن وكل من يقيم على هذه الأرض الطيبة.

كلمة أخيرة:

الحكومة تعمل على أمن وسلامة المجتمع وعلى المجتمع الإستجابة وإلا (من عقب النذير بينوخذ الخامل)

ملامح من الأدب الياباني

رية ناكاو
كاتبة وفنانة – اليابان

لدى اليابان تاريخ أدبي عريق، امتد عبر عدة قرون من الزمن، مقارنة بالآداب الأخرى في العالم، ونظراً لغنى الأدب الياباني بالعديد من الأعمال الأدبية، تم تجميع معظم هذه الأعمال، وبصفة خاصة الأساطير اليابانية القديمة وتاريخ اليابان معاً في مجلدين كبيرين، هما: «كوجيكي» و«نيهون شوكي»، في أوائل القرن الثامن الميلادي.

ويمثل «كوجيكي» سجلاً للأحداث القديمة التي وردت عن مسؤول البلاط، الذي كانت مهمته هي حفظ مثل هذه الأحداث.

بينما «نيهون شوكي»، نيهون التي تعني اليابان، يمثل سجلاً تاريخياً مباشراً مرتباً ترتيباً زمنياً، ومكتوباً بالكانجي (الكتابة على الطريقة الصينية الكلاسيكية).

أيضاً في القرن الثامن الميلادي، ظهر ما يصنف الآن على أنه أقدم مجموعة مختارات أدبية شعرية، والتي تسمى «مانيو شو». تحتوي هذه المجموعة على نحو 4500 قصيدة، معظمها يسمى «تانكا»، وهي (القصائد القصيرة)، و«تشوكا» هي (القصائد الطويلة).

«سيرة الأمير جينجي»، كتبتها امرأة تدعى «موراساكي شيكيبو» في القرن الحادي عشر. تتكوّن من 54 كتاباً، وهي أول رواية كاملة في العالم، تصور القصة حياة البلاط الرائعة للبطل «جينجي»، الذي، على الرغم من كونه أميراً بالولادة، فشل في أن يصبح إمبراطوراً، تُرجمت هذه الرواية إلى أكثر من 20 لغة ورواية شعبية في العالم.

«حكاية هيكي»، هي قصة تسرد أحداث حرب كتبت في القرن الثالث عشر الميلادي، تروي القصة المجد والسقوط والخراب النهائي لعائلة هيكي، آخر الحكام في القرن الثاني عشر الميلادي. إنه ليس مجرد عمل وثائقي فقط، ولكنه أيضاً عنصر ملحمي؛ لهذا يرافق سرد الرواية عزف موسيقى «بيوا» (آلة وترية تشبه العود العربي).

كما ظهر كثير من الأدب الشعبي بداية من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ومن أبرز النظم الشرعية التي ظهرت في تلك الفترة «هايكو»، وهو شكل قصير من الشعر، يتكوّن من 17 مقطعاً، وهو الذي كان شائعاً جداً حين ذاك.

بداية من القرن التاسع عشر فصاعداً، أصبحت أعمال كُتّاب مثل «سوسيكي ناتسومي» و«جونيشيرو تانيزاكي»، اللذين تأثرا بشدة بالغرب، معروفة في الخارج أيضاً.

«سوسيكي ناتسومي» هو الأكثر شعبية بين الكتّاب المعاصرين، من أشهر أعماله «أنا قط»، التي كتبها عام 1905، وكانت أول عمل له. تسرد الرواية على لسان قط، حيوان أليف لمعلم اللغة الإنجليزية. استخدم المؤلف شخصية القط لينقل نقده الخاص للحضارة الناشئة عن رؤيته للإنسان والمجتمع.

«كوكورو» التي تعني «قلب الأشياء أو الإحساس» كتبها أيضاً «سوسيكي ناتسوم» عام 1914، وهو واحد من الكتب الأعلى مبيعاً في اليابان حتى الآن، على الرغم من مرور قرن من الزمن على كتابتها.

«جونيشيرو تانيزاكي» هو أحد أساتذة الأدب الحديث. «الأخوات ماكيوكا»، وهي باليابانية «Sasame Yuki» رواية كتبها عام 1943، وقد ترجمت إلى العديد من اللغات، هي قصة تدور أحداثها في فترة ما بعد الحرب، حول حياة أربع أخوات وحياة يومية لعائلة ثرية تعيش في أوساكا.

ومن بين أعماله الأدبية الأكثر شهرة أيضاً «فتاة اسمها ناوومي»، كتبها عام 1924.

«ياسوناري كاواباتا»، أول مؤلف ياباني يحصل على جائزة نوبل للأدب في عام 1968. يركز أسلوبه الأدبي على تصوير الحياة الانتقالية بطريقة بسيطة مبتكرة، وبالتالي، يقال إنه يشبه الأدب الياباني التقليدي الكلاسيكي، من بين أعماله الرئيسة «راقصة إيزو»، و«بلد الثلج» و«المدينة القديمة».

«هاروكي موراكامي» ترجمت أعماله إلى أكثر من 50 لغة، من أشهر أعماله «الغابة النرويجية» كتبها عام 1987.

تانكا

«تانكا» هو أسلوب شعري ياباني فريد، يتكوّن من 31 مقطعاً، مرتبة في خطوط من 7-7-5-7-5، وتعود نشأته إلى القرن السابع الميلادي، ويمكن رؤية شكله الأصلي في «مانيو شو»، مختارات من القصائد التي جمعت في القرن الثامن الميلادي، ويعرف عن هذا الأسلوب أنه كان من الإنجازات الأساسية للنبلاء.

يكتب الشاعر الكلمات التي تعبر عن مشاعره أو الظروف الموسمية المحيطة في بنية مقطعية شعرية على هذا النحو)7-7-5-7-5). يقال إنه بالنسبة لليابانيين، يعتبر هذا هو الطول الطبيعي الأنسب لقصيدة غنائية تعبر عن المشاعر. وكشكل قصير من الشعر الغنائي، تعكس «تانكا» جمال الحياة والطبيعة في هذا الشكل البسيط للتعبير عن جوهر جميع المشاعر المتداخلة. إن التعبير الحي عما يمس القلب، لديه القدرة على إثارة الخيال بطرق عديدة لمن يقرأها، والتانكا لايستخدم فيها الكلمات التي تشير إلى المواسم ، يتميز أيضاً (التانكا)، بأنه أسلوب يتيح المزيد من الحرية في اختيار محور القصيدة، مثل الحب والقضايا الاجتماعية ونمو الأطفال، والتعبير عن الحياة اليومية، وغيرها من الموضوعات.

على شاطئ إحدى جزر البحر الشرقي

وفوق الرمل الأبيض

مبللاً بالدموع ألعب مع سلطعون صغير

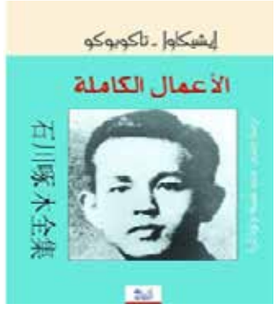

كتب هذا «تاكوبوكو إيشيكاوا» (1886-1912)، الذي يعرف بأنه سيد تانكا. مجموعته المهمة الأولى هي «حفنة من الرمال»، وقد كتبها عام 1910،وهي تحتوي على 551 قصيدة تانكا، وهذه القصيدة من المجموعة:

هذا لذيذ، قلت

السادس من يوليو،

ذكرى السلطة السنوية.

«ماتشي توارا» هي شاعرة مشهورة في العصر الحديث، يعبر شعرها عن أشياء بسيطة غير مهمة في الحياة اليومية، مثل «ذكرى السلطة » (1987)، وهي مجموعة رائعة من الشعر، وحققت مبيعات تفوق المليون نسخة. تمكنت من رفع الشكل الشعري التقليدي إلى مستوى جديد بالكامل، وأصبحت رائدة في تانكا الحديثة الجديدة.

الهايكو

«هايكو» هو أيضاً أسلوب شعري ياباني فريد من نوعه، أبياته ثابتة، تتكون من 17 مقطعاً مرتبة في نمط 5-7-5، وهو أقصر شكل شعري في العالم.

«هايكو» كانت تسمى في الأصل «هايكاي» ويعود مصدرها إلى المقولة الشعبية (Haikai renga) في القرن السادس عشر الميلادي. وقد قيل إن «سوكان يامازاكي» و«موريتاكي أراكيتا» هما من أسس أسلوب «هايكاي» الشعري. وفي نهاية القرن السابع عشر، ازدهر «هايكاي» عندما ظهر شعراء بارزون مثل «باهو ماتسو» و«بوسون يوسا» على الساحة الشعرية.

يُعرَف «باشو ماتسو» (1644-1694) بأنه أعظم رواد شعر هايكاي، وشعره مشهور دولياً، أسسه كشكل فني يهتم بالحياة والطبيعة، مستخدماً تعبيراً طبيعياً يصور الجمال الرقيق، ويسعى للحصول على اهتمام راقٍ يتمثل في جوانب الحياة اليومية.

بدأ الاستخدام العام لمصطلح «هايكو» لهذا النوع من الشعر مع ظهور الشاعر «شيكي ماساوكا» في نهاية القرن التاسع عشر. يتضمن هذا النوع من الشعر كلمات تشير إلى حيوان ما أو نبات أو حدث أو تقليد يقام في موسم وما إلى ذلك. ونظراً لأنه من المستحيل تصوير مشهد فعلي بالتفاصيل في 17 مقطعاً فقط، فمن الضروري الاختصار إلى الأساسيات، وكلمة الموسم هي أحد هذه الاختصارات. على الرغم من أن «هايكو» هو الشعر الأقصر والأكثر ضغطاً في تعابيره في العالم، إلا أنه يتسم بالعمق والاتساع الكبير في المعنى. يحظى كلا من التانكا والهايكو بشعبية كبيرة في الوقت الحاضر أيضاً، ويمكن القول إنهما أصبحا الشكل الفنيّ المميز للشعب الياباني.

البركة القديمة

تقفز فيها ضفدعة

صوت الماء

هذا هو الشعر الأكثر شهرة لباشو ماتسو، «الضفدع» هي كلمة تشير إلى فصل الربيع.

النمط باللغة اليابانية 5-7-5،

Fu . ru . i . ke . ya (5)

Ka . wa . zu . to . bi . ko . mu (7)

Mi . zu . no . o . to (5).

عندما تستمع إلى هذا، يمكنك تخيل ضفدع وبركة على الفور في منطقة ريفية، لم يكن ضفدعاً ولا بركة، أراد باشو أن يعبر بأقصى وأقصر ما يمكن عن الهدوء، كم هو هادئ لدرجة أنه استطاع سماع صوت الماء!

- زهور سقطت

تصعد إلى غصنها

لا إنها فراشة

أراكيدا موريتاكي

- أزهار الكرز الآن

رفرفت على الغصن

بكامل التفتح ولا من تويجة

تاكاهاما كيوسي

- في الشمس الغاربة

يمتد ظل الفزاعة

على الطريق وحيداً

كورورياناجي شووها

- فقط لو استطعنا

إضافة القبضة إلى القمر

لأصبح مروحة رائعة

ياملزاكي سوكان

أوغاريت

لغة الإنسانية الأولى.. وحضارتها الأبدية

غالية خوجة
كاتبة وشاعرة ـ سوريا

لـو كان يعلـم ذاك الفـلاح، يومهـا، أن محراثـه سـيلتقي دون موعـد مـع اللغـة الأولى لـلأرض والعـالم، لأتى منـذ آلاف السـنين ليحـرث تلـك الأرض، ويكتشـف مـا تخبئـه مـن حكايـات وأسـاطير وأزمنـة.

كان الـورد، يومهـا، ينبـت مـن القصائـد، والعصافـير تخـرج مـن اللامـرئي، لتحـطّ هنـاك، قريبـاً مـن البحـر الغائـب عـن الأرض إلى الأبجديـة.

أوغاريـت نبتـة الأرض والـروح والخـير والسـلام، تمـطّ رأسـها مـن خـلال الأبجديـة والسـنابل والرمـوز، فتخـرج أحرفها الفينيقية، وتمتـزج مـع موسـيقى أرواح مـن كتبها، لتظل مشـتعلة بالفكـر والإبـداع.

أوغاريـت الهائمـة في كينونتهـا تبحـث معـي، عمّـن ينتمـي للحضـارة والوطـن، في زمـن اضمحـلّ فيـه الوفـاء للحضـارة والوطـن.

ليـس الوقـت هـو الـذي يعبـر مـن تلـك الريـح العابـرة للوقـت، بل هـي الأبجدية الأولى لـ«أوغاريـت» الواقفـة بشـموخها كمركـز للحضـارات، المتحركـة مثـل أشرعة سـفينة قديمـة عـلى سـاحل البحـر الأبيـض المتوسـط، أو قريبـاً مـن سـواحل الشـارقة ودبي وأبوظبـي، لا فـرق.

الأبجديـة مراكـب عابـرة نحـو بوصلـة الأرواح، والأبجديـة لا تكـترث إلّا بمـن يتجـذر في أعماقهـا، ونبضاتهـا الحيـة، ويبنـي تحولاتهـا الدائمـة بـين الضـوء والضـوء.

الأبجديـة لا تلتقـي مـع أي ظلـمات، ووحدهـا السـفن والميـاه والسـماوات المطلـة عـلى هـذه الأبجديـة، تحلـق في مجـرات هـذه الأبجديـة.

وبـين أبجديـة الريـح وأبجديـة الـروح، عـوالم لا تدركهـا الـدلالات الأولى، ولا الـدلالات الأخـيرة، ليـس لأنهـا بدايـة أو نهايـة، أو بـلا بدايـة أو نهايـة، ربمـا، لأنهـا الوقـت النـازح عـن الفنـاء، وشـمس أخـرى للبقـاء.

النهـار، بعـد نهاريـن، سـيكون شمسـاً ثالثـة. العصافـير التائهـة في أعـماق النهـار تخـبرني بأبجديـة المجاهيـل، والبحـر الـذي يتـسرب مـن تلـك الحكايـات، لا ليغـور مـع المراكـب، بـل ليتحـول إلى لغـة أخـرى لـلأزرق المتـدلي مـن أشـجار النخيـل، والكلـمات، ومـا لـن يـأتي.

مـن نافـذة الأسـطورة، نبتـت تلـك المعـاني، ومـن نافـذة المعـاني، نبتـت تلـك الأبجديـة، وروحـي بـين أبجديـة وأبجديـة، تعلـو أكـثر، فـأكاد لا أصطـدم بي، أو.. لا.. أصادفنـي.

لـن ينـسى السـؤال أحفـاده في المـاضي، ولـن تكـترث الـوردة إلّا بعطورهـا، والبخـور الهائـم في هـذا المـكان يـروي غيابـات الحضـور، فـلا المـدى يبتعـد، ولا الأفـق يـذوب، ولا الأرواح تنطفـئ.

وشـاء اللـه أن يكتشـف الأبجديـة منجـل، أو محـراث بـازغ آخـر، ليؤكـد عـلى حكمـة الأبجديـة المشرقـة دائمـاً، والتـي ترددهـا الأبديـة بـكل أبجديـة: «حطّـم سـيفك، تنـاول معولـك، واتبعني، لنـزرع المحبـة والسـلام في كبـد الأرض».

حديث العزلة

د. منّى بونعامة
مدير التحرير
mini.abdelkader@yahoo.com

مرّت البشرية عبر التاريخ بأحوال وأهوال كثيرة، بسبب الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية، والحروب والمجاعات وغيرها، وقد استطاع الإنسان توثيق تلك المشاهد، وسرد حقائقها، وتوثيق وقائعها بتفاصيلها كافة، فوصلت إلينا بعض أخبارها وافيةً، والآخر ناقصاً ومبتوراً ومبتسراً، لكنه مع ذلك أعطانا تصوراً عاماً عمّا كان عليه الحال.

وتحيلنا دروس التاريخ في إدارة الأزمات المتعلقة بالأوبئة التي مرّت على البشرية، كالطاعون والجدري وغيرهما، على نجاعة العزل والتباعد الاجتماعي، كما فعل عمرو بن العاص، رضي الله عنه، حين خلف معاذ بن جبل في ولاية الشام، أيام طاعون عمواس، حيث خطب في الناس طالباً منهم أن يُشعلوا النار، ويختبئوا منه في الجبال وبأراضٍ مرتفعة، بحيث يبعدهم عن الهواء الملوث في المناطق المنخفضة، وهكذا رفع الطاعون عن أهل الشام.

هذه الطريقة الذكية والواعية في إدارة الأزمة، ومواجهة الخطر ودرئه عن البشر بالعزلة والتباعد؛ لتفادي تفشي الأمراض المعدية، التي تسري عدواها كما تسري النار في الهشيم، ألهمت البشرية جمعاء كيفية التعامل مع الأمراض، بالعزلة، وعلى منوالها سار العديد من الدول في العالم في أزمان مختلفة.

نعم، إنها العزلة، وثمة أنواع من العزلة، عزلة قسرية نفرضها على أنفسنا؛ لكي نحمي أهلينا ومن حولنا والمجتمع كله من تفشي العدوى، وانتشار الأمراض، وهي عزلة إجبارية، وليست اختيارية، لما يترتب عليها من المنافع، ودرء المفاسد التي قد تطول الفرد والمجتمع بأكمله.

وهناك عزلة طوعية وتلقائية، يركن إليها المبدع، ويعيش فيها بمحض إرادته، وطوع أمره، فينسج فيها خيوط إبداعه، ويروي فيها عطشه ولهفته، ويُشبع فيها نهمه بالقراءة والكتابة؛ ليُخرج إلى الناس بعد عزلته عملاً يسرّ الناظرين، في أيّ صنف من صنوف الإبداع المتنوّعة.

في كلتا العزلتين فائدة وثمرة، ويمكن استغلالهما بما يفيد الفرد والمجتمع، وينفع الناس من خير عميم، يمكث في الأرض.

حديث العزلة حالة من التأمل مع الذات، والبوح الشفيف الصادق في الخلوات، بما يخالج النفس ويداخلها من أحاسيس ومشاعر، ظاهرة كانت أو دفينة في خفايا النفس، فكم سواد رقمه الكاتب في بياض، بعد أن انزوى في ركن قصيّ بعيد عن الناس! وكم من إبداع ولد في غمرة الأزمات، وترعرع في كنف الملمات، فأينع ثماراً.

“Al Tahaf” which means strong wind. The UAE saw many of those diseases, which had been combated by the people’s cooperation and solidarity.

In line with the current circumstances and the spread of the COVID-19 pandemic, we are presenting a special file highlighting the diseases and epidemics that the world knew and their effects in the Arabian Gulf region, as well as how was quarantine in the UAE in the past. This file is also shedding light on the role of the COVID-19 pandemic in inspiring the creativity of writers in isolation.

This issue also includes an additional review of the Sharjah Institute for Heritage›s virtual observance of the World Heritage Day, which falls on April 18 every year. The World Heritage Day was proposed by the International Council on Monuments and Sites (ICOMOS) on April 18, 1982, and approved by the General Assembly of UNESCO in 1983. The aim is to promote awareness about the diversity of cultural heritage of humanity, their vulnerability and the efforts required for their protection and conservation and to gain a global consensus on this importance.

The Sharjah Institute for Heritage observes the World Heritage Day, every year by special events, within the Sharjah Heritage Days, which brings the world heritage bearers together in its various elements and colors, and with the participation of many ensembles that perform folk arts of various cultures of peoples and nations in the heart of Sharjah.

The fixed sections of the magazine are reviewing topics and cultural miscellaneous including poetry and folk arts, with special tribute to poetry of Afrah Bint Saif Al Mazroui. They are further going through the developments witnessed by “Noban” art in the UAE, the arts of “Al Shohooh”, the Arabian coffee, travel literature, and historical and heritage landmarks and elements of our rich cultural heritage.

This issue is presenting rich subjects for the Arab readers that will contribute to enriching their heritage and cultural knowledge, and developing their cultural background through valuable approaches written by elite of Emirati and Arab writers.

Diseases and epidemics over the history

Over history, the world witnessed many of diseases and epidemics that killed hundreds of millions of people due to the lack of health services that help combat those diseases and because of the hard the conditions of people in those epochs. Many of those diseases, such as plague, smallpox, and others invaded the Arabian Gulf region, including the UAE, where people resorted to several ways to combat them and curb their spread. The Emirati people›s memory stores terms that refer to those times, such as “Al Ma’zal” which means quarantine, and